المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
(٣٢)

كلية اللغة العربية

قسم الأدب والبلاغة

أحاديث الرسول ﷺ مع الأطفال

دراسة بلاغية تحليلية

مشروع بحثي لإكمال متطلبات الحصول على درجة العالمية (الماجستير)

إعداد الطالب:

علي محمد عمر المختار يوسف

إشراف

الدكتور: محمد بن عبد العزيز نصيف

العام الجامعي ١٤٣٦-١٤٣٧هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن السنة النبوية الشريفة تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وهي المبينة لما أجمل المصدر الأول القرآن الكريم، وهي بهذه المكانة عون للمسلم على عبادة ربه على بصيرة، سواء أكانت: قولا أم فعلا أم تقريرا، وقد كان ديدن العلماء قديما وحديثا محدثين وفقهاء ولغويين وبلاغيين إظهار معانيها، وإبراز ما فيها من حكمة، وما يتعلق بها من هدي، وسلوك قويم، ومما يعين المسلم على فهم الأحاديث النبوية فهما شاملا وتذوق مواطن الجمال فيها والدقة دراستها بلاغيا خصوصا أن صاحبها -عليه أفضل الصلاة والسلام- هو أبلغ البشر، فكلامه مليء بكنوز البلاغة: معاني وبيانا وبديعا.

وقد كان من خصائص حديثه البلاغية الظاهرة مراعاته حال من يخاطبه سواء أكان: رجلا أم امرأة أم طفلا مسلمين كانوا أو كتابيين أو مشركين كل حسب حاله وحسب المقام، ولما كان لحديثه مع الأطفال خصائص تميزه عن غيره من الأحاديث الموجهة للكبار، لذا وجدت من المناسب بحث هذا الموضوع "أحاديث الرسول ﷺ مع الأطفال"، لارتباطه بفئة عظيمة من المجتمع المسلم بل والمجتمع الإنساني بكافة، وذلك من خلال الدراسة والتحليل لتلكم الخصائص البلاغية لهذا الخطاب النبوي الحكيم المؤيد من الله -تبارك وتعالى- مع الأطفال.

ولقد بلغت المادة العلمية المجموعة لهذا البحث اثنان وثلاثون حديثا، وثلث هذه الأحاديث في صحيح البخاري والباقي مما انفرد به مسلم وأصحاب السنن وأحمد -رحمهم الله جميعا- ولا يستبعد الباحث إضافة أحاديث أخرى تستجد في أثناء البحث.

ولما كان بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- ومنهم الحسن وابن عباس وغيرهما قد مروا بأواخر مرحلة الطفولة في حياة الرسول ﷺ، فقد أدرجت الأحاديث الخاصة بخطابهم في هذه الدراسة معتمدا على القرائن الدالة على كونهم أطفالا عندما وجه الرسول ﷺ لهم الخطاب ومعتمدا- خصوصا – القرائن اللفظية والتي لا خلاف بين

العلماء في قبولها واعتبارها، ولأبين -بحول الله وتوفيقه- مواطن الجمال اللفظي والمعنوي والتربوي في هديه ﷺ تجاه هذه الفئة من المجتمع؛ ليدرك القارئ كذلك سواء أكان قارئا عاديا أم متخصصا في علوم البلاغة أن البلاغة وما حوته من علوم وجمال وإبداع وقدرة على التأثير البالغ في النفس البشرية إنما كان صاحبها البالغ فيها حد الكمال البشري هو سيدنا ونبينا محمد ﷺ.

الأهمية العلمية للموضوع

لموضوع هذا البحث ميزة خاصة يشرف بها وتجعله مهما أهمية علمية واضحة، ومن هذه الأسباب:

١) أن هذا الموضوع مرتبط أساسا بالحديث النبوي الشريف، الذي هو الوحي الثاني والذي يستقي منه المسلمون منهج حياتهم.

٢) أن هذه الدراسة ستكشف -بإذن الله تعالى- عن الأسلوب الأنسب لأولياء الأمور، والمعلمين وكذلك العلماء لمخاطبة لأطفال والتأثير فيهم.

٣) ظهر في هذه الدراسة بوضوح أن كلام الرسول ﷺ وهو النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب وحي من الله – تبارك وتعالى-؛ لما جاء فيه من أسرار التخاطب المؤثر مع الأطفال.

٤) من أهم الجهات التي ستستفيد من هذا البحث -بإذن الله- المؤسسات العلمية المهتمة بالأطفال سواء أكانت: مدارس أم جمعيات أم معاهد تهتم بأدب الأطفال أو علم نفس الأطفال، كما يفتح هذا البحث نوافذ أبحاث أو دراسات جديدة للمختصين في دراسات الأطفال.

٥) كشف الخصائص البلاغية في الخطاب النبوي مع الأطفال ومراعاته لمقتضى الحال في المقامات المذكورة في البحث.

أسباب اختيار الموضوع

لكل باحث أسباب تحثه على البحث في موضوع ما وأهمها ما كان نابعا من صميم ذات الباحث ومتعلق بسويداء قلبه، ومن هذه الأسباب:

١) الرغبة الملحة في دراسة كلام أبلغ البشر وأفصحهم ﷺ، وإخراج كنوز بلاغته وفصاحته للناس.

٢) توظيف ما تعلمته من علوم البلاغة الشريفة على أيدي أساتذتي العلماء الكرام في الجامعة الإسلامية؛ لخدمة السنة النبوية.

٣) خصوصية الحديث مع الأطفال، واستلزامه مراعاة المقامات الخاصة المناسبة لهم إرشادا وتعليما أو تودد.

٤) ارتباط موضوع "الأطفال" بتكوين المجتمعات البشرية فهم نواتها وأساسها.

٥) الرغبة في لفت الأنظار إلى أن البلاغة العربية علم حي مبهر محرك لنوازع الجمال في النفوس ومكامن العبقرية في العقول، متى ما وظفت توظيفا صحيحا؛ لربط الناس بكلام الله -تبارك وتعالى-، ومن ثم كلام رسوله ﷺ.

٦) ضرورة أن يدرس الشاهد البلاغي مرتبطا بسياقه السابق واللاحق حتى لا يبتر وينقص تأثيره الجمالي في نفس الملتقي.

٧) خبرة الباحث في تعليم وتربية الأطفال -بفضل الله وحمده- لأكثر من عشرين عاما مكنته من إدراك بعض الجوانب النفسية والسلوكية للأطفال، فأراد أن تكون هذه الخبرة متوجة بدراسة خصائص البلاغية لخطاب النبي ﷺ مع الأطفال وتمام مراعاتها لأحوالهم.

خطة البحث

تحوي هذه الخطة مقدمة، وتمهيدا، وفصلين، وخاتمة، وفهارس، على النحو التالي:

المقدمة وفيها:

- أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث.

التمهيد وفيه:

أولا- التعريف بالطفل في اللغة، والاصطلاح.

ثانيا- خصوصية الحديث الموجه للأطفال.

الفصل الأول: حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام الإرشاد والتعليم.

المبحث الأول: خصائص النظم.

المبحث الثاني: الصور البيانية والمحسنات البديعية.

الفصل الثاني: حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام التودد.

المبحث الأول: خصائص النظم.

المبحث الثاني: الصور البيانية المحسنات البديعية.

الخاتمة : وفيها خلاصة البحث وأهم النتائج

الفهارس العلمية:

١- فهرس الآيات القرآنية.

٢- فهرس الأحاديث.

٣- فهرس المحتويات.

٤- فهرس المصادر والمراجع.

الدراسات السابقة

إن الدراسات السابقة والتي قد اهتمت بأحوال الأولاد أو الصبيان بعامة، ولم تُعن بإبراز خصائص الخطاب النبوي الكريم الموجه للأطفال فقط، بل حللت هذه الدراسات بلاغيا كثيرا من الأحاديث المتعلقة بأحكام الأطفال (الصبيان) عامة دون تخصيص بحال معينة كما هو الحال في بحثي بل كانت أحاديث تتعلق بأحوال الصبيان كلها منذ ولادتهم كتسميتهم وعقيقتهم، وغير ذلك مما كان فيه الخطاب النبوي الكريم موجها لأولياء أمور الأطفال أكثر من توجيهه للأطفال أنفسهم.

ولقد جاء الخطاب فيها للطفل تبعا لمواضيع البحوث الرئيسة وليس مستقلا، فهي لم تهتم بخصوص الخطاب الموجه للأطفال بقدر ما وجهت الاهتمام بتحليل عام للأحاديث ودراستها بلاغيا، وهي وإن اشتركت مع دراستي في تحليل الخصائص البلاغية إلا أنها لم تهتم بالجانب الذي يركز عليه بحثي هذا وهو مراعاة حال الطفل الذي يوجه له الرسول ﷺ الخطاب والسمات البلاغية الخاصة بالخطاب النبوي الموجه للأطفال والتي يفترض بهذا البحث أن يستنتجها بتوفيق الله وكرمه، وهذه الدراسات هي:

١-أحاديث العناية بالأولاد في صحيح البخاري — دراسة بلاغية تحليلية- قداس بنت خالد الخضيري، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، العام ١٤٣٣هـ.

٢-رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين يوسف، العليوي رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، المملكة العربية السعودية، العام ١٤٢٩هـ

٣-أسلوب الحوار في الحديث النبوي في صحيح البخاري، خليل محمد أيوب، بيروت، دار النوادر، العام ٢٠١٢م.

منهج دراسة البحث

منهج الدراسة في هذا البحث –بإذن الله– هو المنهج الوصفي التحليلي، المتسم بالتحليل والتذوق للأحاديث الشريفة للوصول إلى مواطن الجمال فيها، والكشف عن الخصائص البلاغية والجمالية للخطاب النبوي الكريم مع الأطفال في مقامات التعليم والإرشاد والتودد مع مراعاة الآتي:

١- توثيق الأحاديث الشريفة بذكر مصدر الحديث ودرجة صحته.

٢- ضبط ألفاظ الأحاديث الشريفة بالشكل.

٣- توثيق النصوص والاقتباسات من مصادرها الأصلية.

٤- توثيق الأبيات الشعرية من مصادرها.

٥- الترجمة للأعلام غير المشهورين – إن وجدوا –.

٦- كتابة الآيات القرآنية الشريفة بالرسم العثماني.

الشكر والتقدير:

فإني أحمد الله تعالى وأشكره على ما وفق لهذا العمل وفي هذا المجال المبارك، ثم أشكر هذه الجامعة الإسلامية العالمية على جهودها في خدمة الإسلام والعلم النافع وعلى رأسها معالي مديرها المكلف، ثم أشكر أساتذتي الكرام في قسم الأدب والبلاغة على ما علموني وأرشدوني إليه من كل خير في هذا التخصص، وأخص بالشكر أستاذي الكريم فضيلة الدكتور: محمد بن عبد العزيز نصيف على ما حباني من علمه ووقته وإرشاده وتوجيهه وصبره عليّ، وهو الذي قد فتح لي مكتبة منزله وكذاك مكتبة مسجده، واستقبلت اتصالاتي الهاتفية في كل وقت، فجزاه الله عني وعن سنة رسول الله ﷺ خير الجزاء، كما أني أشكر المناقشين الفاضلين على ملحوظاتهم القيمة، وأشكر كل من ساعدني في إتمام هذا البحث وكتابته، والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا وظاهرا وباطنا.

التمهيد

أولا: التعريف بالطفل في اللغة:

جاء في القاموس المحيط: "والطفل بالكسر: الصغير من كل شيء، أو المولود، وولد كل وحشية أيضا، بَيِّنَ الطَفَل والطفالة والطفولة والطفولية جمع أطفال"[1].

كما جاء التعريف في المعجم الوسيط مقتضبا: "والطفولة المرحلة من الميلاد إلى البلوغ، الطفولية، الطفولة"[2].

إن التعريف الأول للطفولة اعتنى بوصفها، وذلك أدق، أما التعريف الثاني فقد اعتنى بزمنها دون وصفها، وبالجمع بين التعريفين وصفا وزمنا يتضح المعنى اللغوي لكلمة "الطفل".

(١) القاموس المحيط، فصل الطاء: ١٠٢٥.

(٢) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، حرف الطاء: ٥٨٠.

ثانيا: التعريف بالطفل في الاصطلاح

سأجعل هذا التعريف الاصطلاحي مقسما على فئتين:

١- تعريف الطفل في اصطلاح الفقهاء، قال بعض الفقهاء: "الصغير وصف في الإنسان من حين ولادته إلى أن يبلغ الحلم"[١].

٢- تعريف الطفل في اصطلاح علماء النفس والتربية: وهو تعريف يقوم على تقسيم مراحل الطفولة زمنيا دون التطرق إلى تعريفاتهم الفلسفية المختصة بطبيعة دراساتهم: فـ "الطفولة المبكرة (ما قبل المدرسة) وتشمل المرحلة من سنتين إلى ست سنوات، الطفولة المتوسطة وتمتد من ست إلى تسع سنوات، الطفولة المتأخرة وتمتد من تسع إلى اثنتي عشرة سنة"[٢].

ومما تقدم نجد واضحا أن الطفل هو الإنسان منذ ولادته حتى مرحلة البلوغ، وقد يطلق عليه غالبا الصبي أو الغلام من مرحلة التمييز إلى البلوغ، وهذا تخصيص بفترة عمرية معينة، جاء في المصباح المنير: "ويبقى هذا الاسم للولد حتى يميز، ثم لا يقال بعد ذلك طفل، بل صبي"[٣].

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ٣١٣/٢.

(٢) علم نفس النمو: ٢٢.

(٣) المصباح المنير: ١٤٢.

ثالثا: خصوصية الحديث الموجه للأطفال:

إن للحديث الموجه للأطفال خصائص تفرضها طبيعة مرحلة الطفولة وحاجاتها ومن هذه الخصائص لهذا الحديث أو الخطاب:

١) الإيجاز: أي أن يكون الخطاب أو الحديث الموجه للطفل موجزا؛ لكي يستطيع استيعابه وفهمه وحفظه وذلك مما يعينه على التنفيذ.

٢) الوضوح: إن وضوح الخطاب الموجه للطفل وبعده عن التعقيدين اللفظي والمعنوي أمر ضروري؛ لاستيعاب الخطاب ومعونة على التنفيذ والعمل بما فيه.

٣) الحقيقة: والمقصود بها في هذا الخطاب الابتعاد عن الأساليب المجازية في اللغة، والتي تحتاج إلى قدرات عليا في التفكير والخيال والتصور.

٤) المراعاة لمقتضى الحال: أو المقام الذي يكون فيه الطفل هو المخاطب مع مراعاة المتكلم لحاله ولجميع عناصر الموقف: من (متكلم)، و (مخاطب)، و (خطاب)، وغيرها، جاء في رعاية حال المخاطب في الصحيحين قوله: "وإنشاء الخطاب البليغ يتأثر بأحوال المتكلم والمخاطب، وما يحيط بهما من سياق، وليس التأثر بحال المتكلم وحده، وإن كان هو الذي ينشئ الخطاب، ولا حال المخاطب، وإن كان هو المقصود بالكلام ولا السياق الذي جرت فيه عملية التخاطب ولكن المتكلم البليغ يراعي هذه الأحوال جميعا"[1].

إن هذه الخصائص السابقة قد برزت واضحة من خلال التحليل البلاغي لأحاديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام التعليم والإرشاد وفي مقام التودد.

---

(١) رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: ١١.

الفصل الأول : حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام الإرشاد والتعليم.

المبحث الأول: خصائص النظم

المبحث الثاني: الصور البيانية والمحسنات البديعية.

المبحث الأول: خصائص النظم

توطئة:

سيكون هذا المبحث لاستخراج وتحليل ما يوجد في الأحاديث الشريفة -والتي عددها اثنان وعشرون حديثا في هذا الفصل- من مفردات علم المعاني التي هي نظم الكلام، وإذا تأملنا في أحاديث الرسول ﷺ التي يظهر للباحث أنها كانت في مقام التعليم والإرشاد فإننا سنلاحظ عظيم حكمته وبلاغته ﷺ في التخاطب مع الأطفال.

۞ فمن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ الحسن بن علي -رضي الله عنهما- تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ: "كِخْ كِخْ" ليطرحها، ثم قال: "أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ"(١)، وفي هذا الحديث طفل يقدم على تناول طعام أمامه ﷺومن البدهي أنه غير متصور لمسألة حل الطعام أو حرمته فيخاطبه معلم الناس الخير ﷺ بعبارة "كخ" لينهاه ويزجره عن تناول هذا الطعام وهو التمر، جاء في القاموس المحيط: "وأخ: كلمة تكره وتأوه. والأخ: القذر، ويكسر، ولغة في الأخ. وإخ بالكسر: صوت إناخة الجمل، وبمعنى "كخ"، أي: اطرح، وقد يفتح فيهما"(٢).

ويقول الإمام الطيبي –رحمه الله- موضحا هذه الكلمة: "وهي كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات، يقال: كخ أي اترك، وارمِ"(٣).

وقد وضح الحافظ ابن حجر –رحمه الله- الغرض من استعمال كلمة "كخ". فقال: "بفتح الكاف، وكسرها، وكسر المعجمة، وهي كلمة لردع الصبي، عند تناوله ما يستقذر"(٤).

وتكرير النبي ﷺ لكلمة كخ هو نوع من أنواع الإطناب يسمى "التكرير" والغرض منه تأكيد النهي وإنذار الطفل عن مقاربة هذا الفعل، وفيه مراعاة للمقام وحال الطفل حيث أن الأطفال يفهمون ويعون أكثر بالتكرار.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ، رقم الحديث (١٤٩١)، ١٢٧/٢.

(٢) القاموس المحيط (ص:٢٤٨).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ١٥٠٢/٥.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٤٧/٣.

قال ابن يعقوب المغربي[1] -رحمه الله-: "والمراد بالإنذار التخويف، وهذا مثال للنكتة الحاصلة بالتكرار"[2].

ثم يثني ﷺ في خطابه لهذا الطفل بقوله: "أما شعرت؟" والاستفهام لا يقصد به السؤال المتعارف عليه، ولا يريد ﷺ من الطفل إجابة وإنما جاء هذا الاستفهام إنكاريا، والإنكار منصب على عدم شعور الطفل بحرمة الأكل من الصدقة فجاء الاستفهام إنكاريا لينبهه على خطورة هذا الأمر وتأديبه وهو مناسب للمقام ومراع له وللموقف الحاصل؛ لغرض تأديبه وإرشاده وتعليمه وتنبيهه على أن هذا الفعل لا ينبغي له، وقد يكون الخطاب كذلك لإرشاد من يسمع من الكبار.

وقد جاء في الجملة الاستفهامية تأكيد لفظ "أنَّا" للمبالغة في التحذير لهذا الطفل وتعليما له، منذ نعومة أظفاره؛ ليتربى وينشأ مدركا لأهمية هذا الأمر ورسول الله ﷺ يقدم لهذا الطفل معلومة قيمة تبقى معه طوال حياته، وقد تحقق ذلك يقول العلامة بدر الدين العيني[3] -رحمه الله-: "وحديث الحسن بن علي -رضي الله عنهما- من رواية أبي الحوراء قال: كنا عند الحسن بن علي فسئل ما عقلت من النبي ﷺ قال كنت أمشي معه فمر على جرين من تمر الصدقة، فأخذت تمرة، فألقيتها في فمي .... الحديث"[4].

وهنا فائدة نفسية تربوية تتجلى من خلال خطابه ﷺ لهذا الطفل وهي كون المعلومات التي تعطى للأطفال في صغرهم تنفعهم في حياتهم وسلوكهم وتكون لهم عادة حسنة مهما تقدمت بهم السن، وقد توصل بعض الباحثين إلى هذا الأمر حديثا فقال: "إن ما نحبه في إعطاء المعلومات للطفل هو أنك تقدم بها له هدية يستعملها دائما

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي، من أهل فاس، توفي بمكناس، له شروح عديدة، منها: شرح رسالة الشريف الجرجاني، وشرح منظومة الجوهر المكنون للأخضري وغيرها، توفي سنة ١١٢٨هـ. انظر: الأعلام للزركلي: ٢٤١/١.

(٢) مواهب الفتاح: ٦٥٩/١.

(٣) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبو محمد، بدر الدين العيني، له مؤلفات عديدة، منها: عمدة القاري في شرح البخاري، مختصر شرح شواهد الألفية، ويعرف بالشواهد الصغرى، وطبقات الشعراء، توفي -رحمه الله- سنة ٨٥٥ هـ. انظر: الأعلام للزركلي: ١٦٣/٧.

(٤) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري: ١١٣/٩.

وسيحتاج طول حياته أن يعرف أكثر"[1].

ثم إن للحديث رواية أخرى جاءت بصيغة: "ألقها أما شعرت فإنها لا تحل لنا الصدقة"[2] وراوي الحديث هو الحسن بن علي رضي الله عنه صاحب القصة في الحديث السابق، عندما كان طفلا مما يدل على بقاء أثر التعليم والإرشاد في نفسه وانتفاعه به، وهنا يبدأ الخطاب النبوي الكريم بقوله ﷺ: "ألقها" دون كخ كخ والتي وردت في الحديث السابق، وقد يكون الراوي رواها هكذا "ألقها" بالمعنى ولم يروها بقوله: "كخ كخ" والتي هي الرواية الأصح، وهي كذلك أقرب لفهم الطفل وأنسب لزجره، ولفعل الأمر في هذا الموضع دلالة بلاغية واضحة هي الإيجاز في الكلام، فلم يقل ﷺ ألق التمرة يا حسن، والإيجاز إيجاز حذف مناسب تماما لمقتضى الحال أو الموقف وخصوصا أن المخاطب طفل، ويُحتمل أن رسول الله ﷺ أراد أن يربط تعليم الطفل وإرشاده بالموقف نفسه، ليكون أثبت في نفسه وأنفع له، والاحتمال الآخر أن يكون ذلك بسبب رواية الحديث بالمعنى.

ثم إن للكلام الموجز آثارا حسنة على نفس الطفل تعود عليه بفهم ما يتعلمه وإدراكه بوضوح وكذلك تحسن من سلوكياته، وقد توصل بعض الباحثين إلى مثل هذا المعنى فقالوا: "إن قيمة التعبير الموجز تكمن في أنه بدلا من استعمال الأسلوب القاسر مع الطفل نعطيه فرصة؛ ليمارس مبادراته وذكاءه الخاص"[3].

وقد يُلاحظ أمر في نظم جملة الاستفهام في الرواية الأولى، ونظمها في الرواية الثانية، فقوله ﷺ في الحديث الأول: "أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة؟" وفي الحديث الثاني "أما شعرت أنها لا تحل لنا الصدقة؟"، والسؤال الذي يمكن أن يدور في الذهن هو: هل كلمة "نأكل" الواردة في الرواية الأولى -والتي تراعي حال الطفل وفهمه- مرادفة لكلمة "تحل" والتي وردت في الرواية الثانية حيث فهمها الراوي فرواها بالمعنى بقوله "ألقها" وهي كلمة تؤدي الغرض، أم أن لكل منهما معنى تؤديه بوضوح ضمن

(١) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ١١٨.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم الحديث (١٧٣١) قال محقق المسند -شعيب الأرنؤوط-: "إسناده صحيح". ٢٥٥/٣.

(٣) كيف تتحدث فيصغي الأطفال إليك: ١٢٠.

سياقها؟ إن كلمة "نأكل" أشمل وأعم من كلمة "تحل" فالأكل قد يكون حلالا أو حراما، وهي مفردة تناسب الصغير في السن، ويسهل عليه فهمها واستيعابها، وأما كلمة "تحل" مطابقة للمعنى حيث نقله الراوي بالمعنى، ولا تستعمل هذه الكلمة إلا فيما يحل فقط، وهو الحلال الذي أحله الله ورسوله ﷺ، وهنا تكمن الفائدة، وهي أن المؤمن ينبغي أن يكون تناوله للأشياء من باب الحل فقط وفيما سبق تعليم وإرشاد لهذا الطفل ولسائر أطفال العالم لهذا الأمر النبوي الكريم، وكما ورد في المثل: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر".

إن الجملة الاستفهامية ثرية بالمعاني، وغنية بالدلالات، يقول الشيخ العلامة محمد أبو موسى في سياق حديثه عن تركيب الجملة الاستفهامية: "ثم إن الجملة لا تتكون من هذه المفردات وحدها، لأن هذه المفردات لا يقوم بها كلام، ولا تفيد فائدة، يحسن السكوت عليها، وإنما يحسن السكوت عليها إذا أجريت وراءها خيطا من العقل والحس، يربط بعضها ببعض، ويجعل كل واحدة منها بسبب من الأخرى"[1].

وقد تجلى في هذا الحديث وضوح الخطاب الموجه للطفل ومناسبته لمقام التعليم والإرشاد.

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام الإرشاد والتعليم ما جاء عن الصحابي الجليل الحسن بن علي -رضي الله عنهما- قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"[2].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ الطفل -وهو الحسن بن علي رضي الله عنهما- ملقنا إياه دعاء القنوت في صلاة الوتر، والتي هي صلاة ليلية تكون فيها المناجاة صافية هادئة فتوقع ألفاظ الدعاء النبوي في النفس وقعا مؤثرا نافعا؛ ليغرس ﷺ في نفس

(١) دلالات التركيب: ٢١٤.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، رقم الحديث (١٤٢٥)، ٦٣/٢. قال الترمذي: "هذا حديث حسن". سنن الترمذي: ٥٨٧/١. قال الزيلعي -رحمه الله-: "قال النووي في "الخلاصة": "وإسناده صحيح، أو حسن". نصب الراية: ١٢٥/٢.

الطفل هذه المعاني الإيمانية التي حوتها ألفاظ الحديث الشريف، فتؤثر في الطفل زيادة في إيمانه وتربية لشخصيته، واعتدادا بالثقة في ربه ودينه.

لقد صُدر هذا الدعاء بلفظ "اللهم" ومعناها: "يا الله" فهو نداء لله تعالى، ولا يذكر معه "يا"، وقد جاء في لسان العرب: "قال أبو إسحاق: وقال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم اللهم بمعنى يا ألله، وإن الميم المشددة عوض من يا، لأنهم لم يجدوا يا مع هذه الميم في كلمة واحدة، ووجدوا اسم الله مستعملا بـ "يا" إذا لم يذكروا الميم في آخر الكلمة، فعلموا أن الميم في آخر الكلمة بمنزلة يا في أولها"[1].

كما أن النداء هنا ليس جاريا على أصل معناه بل هو من باب طلب الأنس والاتصال بالله تبارك وتعالى.

وتبدأ الأدعية في هذا الحديث الشريف بجمل في غاية الإيجاز، بقوله ﷺ : "اهدني فيمن هديت" وطلب الهداية والإرشاد من الله من أهم المهمات للمؤمن ليسير في حياته على نور من الله، يسلم به من الآفات والشرور التي تبعده عن ربه، أو تنغص عليه صفو حياته، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "اللهم اهدني، أي: ثبتني على الهداية، "فيمن هديت" أي: في جملة من هديتهم، أو هديته من الأنبياء، والأولياء ... وقال ابن الملك: أي: اجعلني فيمن هديتهم الصراط المستقيم"[2].

وفي الجملة إيجاز قصر[3] يجمع في ألفاظه القليلة معاني كثيرة تشمل جميع أنواع الهداية، وقد ذكر ابن قيم الجوزية –رحمه الله– مراتب الهداية وبسط الكلام فيها، وهي عشر مراتب[4]:

الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه عليه.

الثانية: مرتبة الوحي المختص بالأنبياء.

---

(١) لسان العرب ١٣/٤٧٠.

(٢) تحفة الأحوذي: ٢/٣٢٢.

(٣) "ويسمى بهذا الاعتبار إيجاز القصر؛ لوجود الاقتصار في العبارة، مع كثرة المعنى" مواهب الفتاح: ١/٦٨٢.

(٤) مدارج السالكين: ١/٦٠-٧٤.

الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري.

الرابعة: مرتبة التحديث: وهذه دون مرتبة الوحي الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الخامسة: مرتبة الإفهام.

السادسة: التبيين: وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهودا للقلب كشهود العين للمرئيات.

السابعة: البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء.

الثامنة: مرتبة الإسماع: وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ، فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب.

التاسعة: مرتبة الإلهام: وهو مقام المحدَّثين.

العاشرة: الرؤيا الصادقة.

وعند قوله ﷺ: "وعافني فيمن عافيت" فالعافية هي أوسع عطاء من الله في الدنيا والآخرة، وهي كذلك أمنية غالية ورجاء لكل مسلم يدعو بها الله تبارك وتعالى دائما ليسعد وينعم مطمئنا في حياته بالعافية، وقد دفع عنه السوء كله، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "وعافني فيمن عافيت" قال ابن الملك: من المعافاة التي هي دفع السوء"[1].

وفي الجملة إيجاز حذف[2]، وذلك بحذف بعض المتعلقات؛ إذ لا يحصى عدد من عافى الله من خلقه من الأنبياء والملائكة والصالحين وغيرهم، وفي قوله ﷺ: "وتولني فيمن توليت" فالمعنى: سؤال الله أن يجعله في جملة من تولاهم برحمته، وعطفه، وفضله، ولم يكلهم إلى أحد سواه.

وفي الجملة -أيضا- إيجاز حذف، فهؤلاء الذين تولاهم الله بعنايته ورحمته لا يحصون عددا ولا يحصرون نوعا، وهم أنواع: الأنبياء والرسل والملائكة والصديقون والشهداء والصالحون، وقوله ﷺ: "وبارك لي فيما أعطيت" والمعنى: طلب البركة، وهي

---

(١) تحفة الأحوذي: ٢/٣٢٢.

(٢) قال الخطيب -رحمه الله-: "إيجاز الحذف: وهو ما يكون بحذف، والمحذوف إما جزء جملة أو جملة أو أكثر من جملة والأول مضاف كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾، أي: أهلها" التلخيص: ص:٢١٦.

النفع والخير الدائمين في جميع ما أعطى الله العبد من نعم في دينه، ودنياه وفي نفسه وأهله وماله، والإيجاز إيجاز حذف، حذفت منه متعلقات عديدة.

ثم نجد سؤال الله الوقاية من سوء القضاء وشره، عند قوله ﷺ: "وقني شر ما قضيت" فالإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة، والمؤمن يعلم أن كل قضاء مما يحب أو مما يكره، إنما هو مكتوب له أو عليه ومع تسليمه بهذه الحقيقة يدله الله الرحيم بكرمه على لسان رسوله محمد ﷺ أن يسأل الله الوقاية والحماية من سوء القضاء أيا كان نوع هذا القضاء، فالعبارة فيها إيجاز حذف.

وعند قوله ﷺ "فإنك تقضي ولا يقضى عليك" نجد الجملة مصدرة بالتوكيد بـ "إن" وذلك لأن المخاطب هو الله تبارك وتعالى وقضاءه حق لا ريب فيه فحسُن التأكيد، وهذا المعنى معلوم بالضرورة لكل مؤمن وهو أن الله تبارك وتعالى هو الحاكم بما يريد في كل شيء فلا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه مع ما تضمنته العبارة من تعظيم الله وتنزيهه وتعاليه عن كل نقص، جاء في تحفة الأحوذي: "فإنك تقضي: أي تقدر، أو تحكم بكل ما أردت، "ولا يقضي عليك" فإنه لا معقب لحكمك"[1].

ثم عند قوله ﷺ: "إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت" وهي العبارة الأخيرة والتي جاءت مصدرة بضمير الشأن؛ لعظمة هذا الأمر وأهميته، وليكمُل توضيحه، وأنه مع اجتماع ضمير الشأن والتأكيد بـ "إن" لم يبق إلا التسليم بكمال العزة لله، والتي تقتضي عزة كل من والاه سبحانه.

وقد وصلت الجمل الخمس الأُوَل في هذا الحديث في قوله ﷺ: "اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت" فهذه الجمل الخمس جمل إنشائية لفظا ومعنى، والرابط بينها والجامع هو: مقام الدعاء والتضرع إلى الله تبارك وتعالى، وهو ما يسمى بالتوسط بين الكمالين.

إن بين المسانيد كلها جامع مناسب، وهو كونها أمورا يشترك في طلبها والحرص عليها ودعاء الله بها كل مؤمن وهي أمور متناسبة: الهداية، والمعافاة، والتولي من الله، والبركة في العطاء، ووقاية شر القضاء.

---

(١) تحفة الأحوذي: ٢/٣٢٣.

وقد جاء التفتازاني[1] -رحمه الله- بمفهوم واسع للمناسبة في الاتحاد وشامل فقال: "وبالجملة يجب أن يكون أحدها بسبب من الآخر، وملابسا له ملابسة لها نوع اختصاص"[2].

ثم إن من محسنات هذا الوصل التي تزيده تأثيرا في نفس المخاطب بالاتساق والتناسب: اتفاق الجمل في الفعلية، إذ الأفعال هي "اهدني وعافني وتولني وبارك لي وقني" فالداعي يدعو الله بهذه الدعوات واتصافه وتخلقه بها وحصوله عليها يكون طول حياته بالتدرج والتجدد، يقول الشيخ عبد القاهر -رحمه الله-:" وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء"[3].

وقد فصلت جملتا: "إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت"، وسبب الفصل بين الجملتين هو: كمال الاتصال؛ لأن الجملة الثانية تأكيد في المعنى لمضمون الجملة السابقة "وأما كمال الاتصال الذي يكون بين الجملتين فيمنع من العطف ... فيتحقق ذلك الكمال بينهما؛ لأجل كون الثانية مؤكدة للأولى توكيدا معنويا، بأن يختلف مفهومها، ولكن يلزم من تقرر معنى إحداهما تقرر معنى الأخرى"[4]، فالجملة الأولى تقرر أن من والاه الله لا يذل أبدا؛ لأنه هو تعالى الرب الذي ربى جميع المخلوقات بنعمه الحسية وخص المؤمنين بالنعم المعنوية كذلك، وهو المتعالي صاحب العظمة والعلو والتنزيه، فمن كانت هذه صفاته كان من والاه عزيزا لا يذل أبدا.

كما نجد في قوله ﷺ "اهدني عافني" ظهور الضمير "ياء المتكلم" في هذه الأفعال، وهو مناسب لهذا المقام لما فيه من تضرع، وتذلل لله تبارك وتعالى فالتعبير فيه بالضمير أبلغ من التعبير بالاسم الظاهر.

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بـ تفتازان من بلاد خراسان، له مؤلفات، منها: المطول، في البلاغة، والمختصر اختصر به شرح تلخيص المفتاح، وشرح العقائد النسفية، وشرح التصريف العزي، في الصرف، وهو أول ما صنّف من الكتب، وكان عمره ست عشرة سنة، توفي -رحمه الله- سنة ٧٩٢هـ. الأعلام للزركلي ٢١٩/٧.

(٢) المطول:٤٥٥.

(٣) دلائل الإعجاز:١٢٣.

(٤) مواهب الفتاح: ٥٧٥/١.

إن الطفل المخاطب والملقنّ لهذا الدعاء الشريف لم يكن سنه بعد قد جاوز الثامنة ومع ذلك نجد أن الدعاء الذي علمه إياه الرسول ﷺ وأرشد إليه مليء بالمعاني الإيمانية المصبوبة في أرقى القوالب اللغوية والدلالات البلاغية الدقيقة، وذلك؛ لأن الطفل صفحة بيضاء تتقبل كل ما يكتب أو ما ينقش عليها، وقد توصل بعض الباحثين إلى هذه الفائدة فقالوا: "إن الطفل من سن السادسة إلى الثانية عشرة يكون في طور اكتساب وظهور المبادئ الأخلاقية كالمساواة والإخلاص والصداقة، ثم تنمو القيم الأخلاقية"(١).

۞ ومن الأحاديث الواردة في نفس المقام، ما جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين: "أُعيذُكُما بكلماتِ الله التامّة، من كلِّ شَيطان وهامَّةٍ، ومِنْ كُلِّ عَينٍ لامَّةٍ، ثم يقول: كان أَبُوكمْ يُعَوِّذُ بهما إسماعيلَ وإسحاقَ"(٢).

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلين هما حفيداه بخطاب يرشدهما فيه للاستعاذة بالله وحده؛ ليغرس العقيدة والإيمان في نفوس الأطفال منذ نعومة أظفارهم.

فيبدأ ﷺ بعبارة "أعيذكما بكلمات الله التامة" قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "قوله:" بكلمات الله" قيل: المراد بها: كلامه على الإطلاق، وقيل: أقضيته، وقيل: المراد بـ"التامة": الكاملة، وقيل: النافعة، وقيل: الشافية، وقيل: المباركة، وقيل: القاضية التي تمضي وتستمر ولا يردها شيء ولا يدخلها نقص ولا عيب"، وبهذا الشرح لهذه الكلمات الثلاث يتبين مدى الإيجاز في عبارة الرسول ﷺ، وهو إيجاز قصر(٣)، جمعت فيه الألفاظ القليلة المعانيَ الكثيرة.

ثم بَيّنَ ﷺ ببيان موجز كل ما يخشاه الإنسان على نفسه من سوء وضرر فقال:" من كل شيطان وهامة"، يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "من كل شيطان" يدخل

---

(١) علم النفس النمو: ٢٤٧.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب السنة، باب الرقى، رقم الحديث (٤٧٣٧)، ٤/٢٣٥. وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". سنن الترمذي: ٣/٤٦٤. قال سليم بن عيد: "قلت: وهذا إسناد صحيح. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال البغوي: هذا حديث صحيح". عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني: ٢/٧٢٢.

(٣) سبق تعريف إيجاز القصر في ص: ١٦.

تحته شياطين الإنس والجن، وقوله: "وهامّة" -بالتشديد- واحدة الهوام ذوات السموم، وقيل: كل ما له سم يقتل ... وقيل: المراد كل نسمة تهم بسوء"[1].

فالعبارة موجزة إيجاز حذف؛ إذ حذف في كل عبارة ألفاظ كثيرة بينها وفصلها العلماء وشراح الحديث، ثم يأتي قوله ﷺ: "ومن كل عين لامة"، جاء في النهاية: "ومن كل عين لامة" أي: ذات لمم"[2].

وهذا اللّمم مما يخشاه كل إنسان لضرر العين المعلوم، وجلبها -عياذا بالله- للآفات، والأمراض لمن أصابته بل وقد تصيبه بالجنون؛ لذلك جاءت العبارة موجزة إيجاز حذف؛ لتغني ألفاظها القليلة عن التطويل والإسهاب.

إن الخطاب الموجز للطفل لهو من تمام مراعاة مقتضى الحال فهو مناسب لقدراته العقلية، وحصيلته اللغوية القليلة، وهو عامل مهم كذلك في سرعة الحفظ، ومن ثَم الفهم والاستيعاب، كما أن الايجاز يجعل الطفل متعاونا متجاوبا مع من يعلمه، لذلك يوصي بعض الباحثين فيقول: "ولأجل الوصول إلى الترغيب في التعاون مع الأطفال أوجز الكلام الموجه إليهم"[3].

إن عدوله ﷺ عن مخاطبة الطفلين بقوله إبراهيم عليه السلام، فقال مكان ذلك: -في رواية البخاري-: "إن أباكما"[4]، وفي رواية أبي داوود: "كان أبوكم" هو عدول من رسول الله ﷺ عن لفظ إلى آخر ولا يكون إلا لغرض، والغرض المهمِ هو موافقة القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[5]، قال بعض المفسرين: "وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمته من حيث انه سبب لحياتهم الأبدية، ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة"[6]، والغرض هو الإشعار بمعنى الأبوة وما يتضمنه من حنان وحرص ورحمة لأولاده وخوفه عليهم من كل ما من شأنه أن يلحق

(١) فتح الباري: ٦/٤٩٧.

(٢) النهاية في غريب الحدث والأثر: ٤/١٦٨.

(٣) كيف تتحدث فيصغي إليك الصغار: ٨٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب، رقم الحديث (٣٣٧١) ٤/١٤٧.

(٥) سورة الحج آية: ٧٨.

(٦) تفسير البيضاوي: ٤/١٤٣.

الضرر بهم، كما أن التثنية في قوله ﷺ: "إن أباكما" إشعار بالتخصيص لهما يزيدهما تعلقا بهذا التعوذ؛ إذ ألف الاثنين لا تدل إلا على خطاب الاثنين، وفي لفظ الجمع في قوله ﷺ: "كان أبوكم" إشعار بالأبوة العامة لجميع المؤمنين وتكريم وتبجيل لإبراهيم عليه السلام، مما المخاطبين بالاقتداء به عليه الصلاة والسلام.

۞ ومن الأحاديث التي جاءت في مقام التعليم والإرشاد ما جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما، فقال: "يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[(١)].

ففي هذا الحديث يبدأ الخطاب النبوي الكريم بالنداء "يا غلام" والياء: أداة تستعمل في البعيد ولا تستعمل في القريب إلا مجازا، وقد جاء في حاشية الدسوقي[(٢)]: "إنها حقيقة في البعيد، ولا تستعمل في القريب إلا مجازا؛ لتنزيله منزلة البعيد"[(٣)]. بيد أنها استعملت لنداء القريب، والقريب طفل، ومن سمات الأطفال عدم التركيز والميل إلى اللهو واللعب، فكان النداء بهذه الأداة أنسب وأجدر بالمقام وأكثر مراعاة لمقتضى الحال، فالمقام مقام تعليم وإرشاد، يحتاج لمزيد تيقظ، وانتباه من المخاطب، كما أن النداء يشوق المخاطب إلى ما سيأتي بعده من خطاب، وقد جاء في كتاب التشويق في الحديث النبوي: "إن النداء يهيأ المنادى وينبهه فيصغي بعناية وتشوق إلى ما يوجه إليه بعد النداء، ويترقبه ويتطلع إلى معرفته والإحاطة به، فهو طريق من طرق التشويق إلى المعنى في الحديث النبوي الشريف"[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي، أبواب صفة القيامة، والرقائق والورع، رقم الحديث (٢٥١٦) قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". ٢٤٨/٤. وصححه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٩٧/٥.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي، المصري، له حواشٍ متعددة، منها: حاشية على السعد شرح التلخيص، وغيرهما توفي –رحمه الله– سنة ١٢٣٠هـ. انظر: الفكر السامي (٦٢٧/٢).

(٣) حاشية الدسوقي على السعد: ٥١٥/٢.

(٤) التشويق في الحديث النبوي: ٣١.

ولما كانت توجيهات هذا الحديث للمسلم مهمة جدا؛ لتعلقها بأمر عظيم وأصل من أصول الدين، وهو تقرير ثوابت الإيمان في نفس الطفل، فقد قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين"(١)، كان لزاما فيها تنـــزيل القريب منـــزلة البعيد الغافل، "للتنبيه على عظم الأمر المدعو إليه"(٢).

إن لفظة "كلمات" جمع مؤنث سالم يدل على القلة، وقد وردت منكرة ويفيد تنكيرها تعظيم أمرها، وهي قيد للفعل "أعلمك" تزيده تخصيصا وتوضيحا، وما سبق يشوق الطفل المخاطب إلى معرفة هذه الكلمات مع تنبيهه أو تنبهه، وقد ورد في عبارة الخطيب -رحمه الله- عن مزايا التقييد وفوائده قوله: "لتربية الفائدة"، فقد جاء في المطول توضيح لهذه الفائدة: "فلتربية الفائدة وتقويتها؛ لأن ازدياد التقييد يوجب ازدياد الخصوص، وهو يوجب ازدياد البعد الموجب بقوة الفائدة "(٣).

إن أول هذه الكلمات البليغة هي: "احفظ الله يحفظك"، يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله- شرحا لهذه العبارة:" احفظ الله، يعني: احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه ... وقوله ﷺ:" يحفظك" يعني: أن من حفظ حدود الله وراعى حقوقه حفظه الله فإن الجزاء من جنس العمل"(٤).

ويظهر في عبارة "احفظ الله" حذف المضاف، وهو كما سبق حدود الله، أو حقوق الله، وذلك لغرض بلاغي واضح، وهو: المبالغة في المحافظة على حدود تبارك وتعالى، وفي العبارة إيجاز حذف.

ودليل الحذف لا أقول العقل، بل الضرورة التي هي أولى المسلمات العقلية، فربنا تعالى هو القوي الغني الحافظ لكل شيء -سبحانه وتعالى- الصمد الذي استغنى بذاته عن كل شيء.

وتصدر العبارة التالية بمثل ما صدرت به الأولى "احفظ الله" وهذا التكرار أو الترديد

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٢٢٣.

(٢) حاشية الدسوقي على السعد: ٢/٥١٥.

(٣) المطول: ٣١٤.

(٤) جامع العلوم والحكم: ص:٢٢٣-٢٢٤.

يفيد التوكيد، وكونه إطنابا لا يخلو من فائدة، وهي تثبيت المعلومة في ذهن الطفل.

وأما قوله "تجده تجاهك"، فقد قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-:" وقوله ﷺ: (احفظ الله تجده تجاهك) أي: أنّ مَن حفظ حدود الله وراعى حقوقه وجد الله معه في كل أحواله حيث توجه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويسدده"[1].

وقوله ﷺ: "تجده تِجاهك" هي وزان "يحفظك" وكلاهما جاء بعد عبارة واحدة هي: "احفظ الله" فتكون "تجده تجاهك" توضيحا وتحديدا وتخصيصا للعبارة العامة "يحفظك" وشرحا لها، ففي الحديث على هذا إطناب بالإيضاح بعد الإبهام، يقول الخطيب -رحمه الله- في معرض حديثه عن الأطناب: "وهو إما بالإيضاح بعد الإبهام؛ ليرى المعنى في صورتين مختلفتين، أو ليتمكن في النفس فضل تمكن، ... أو لتكمل اللذة بالعلم به، فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به"[2].

ثم يأتي قوله ﷺ في خطابه للطفل: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله" ويظهر للباحث أن في الجملتين إطنابا بذكر الخاص بعد العام، فالسؤال الأول لله في قوله ﷺ: "إذا سألت"، والاستعانة الأولى بالله: "وإذا استعنت" هما السؤال والاستعانة العامان غير المخصصين أو المحددين، فجاء التخصيص بقوله ﷺ:" فأسأل الله"، "فاستعن بالله"؛ توضيحا للوجهة التي ينبغي للمؤمن أن يتوجه إليها كل ما أراد أن يدعو بشيء أو يستعين على شيء كما أن ورود "إذا" الشرطية مع تغليب استخدام الفعل الماضي معها دلالة على الجزم، والجزم يتعلق بفعل الشرط لا بجزائه فالسؤال والاستعانة أمران لا بد من وقوعهما دائما، وهو إجابة الله لمن دعاه وعونه لمن استعان به.

يقول الخطيب -رحمه الله-: "فـ"إن"، و"إذا" للشرط في الاستقبال لكن أصل "إن" عدم الجزم بوقوع الشرط، وأصل "إذا" الجزم بوقوعه ... وغلب لفظ الماضي مع "إذا""[3].

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٢٢٧.

(٢) التلخيص: ٢٢١.

(٣) التلخيص: ١٠٩.

إذن فالأسلوب السابق وإن غلب فيه الفعل الماضي فهو نص في الاستقبال، عبر عنه بالماضي المتحقق و لم يعبر عنه بالمضارع المستقبل المتوقع دلالة على وجوب صرف جميع أنواع العبادة لله وخصوصا الدعاء والاستعانة.

وقد جاء بلفظة الأمة في قوله ﷺ:" واعلم أن الأمة" معرفة بالألف واللام، وهي المسند إليه؛ لغرض الشمول، والاستغراق لجميع أفراد الأمة كلهم، وفائدة هذا الاستغراق زرع الطمأنينة والثقة والشجاعة في نفس الطفل المخاطب حتى يدرك أن الأمر والقضاء لله وحده لا شريك له، وأن الأمة مهما قويت أو عظمت لا تستطيع دفع شيء من قضاء الله، وقد جاء في مواهب الفتاح: "وقد يفيد أي: المعرف بالألف واللام المشار بها إلى الحقيقة الاستغراق لجميع الأفراد، وذلك بأن يشار إلى الحقيقة في ضمن كل فرد وفي أي محل وجدت فيه"[1]، وعند قوله ﷺ: "لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك"، ونجد شرحا وافيا للعبارة عند الحافظ ابن رجب -رحمه الله-:" والمراد أن ما يصيب العبد في دنياه مما يضره أو ينفعه فكله مقدر عليه ولا يصيب العبد إلا ما كتب له من ذلك في الكتاب السابق ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعا"[2].

وفي العبارة يظهر أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء: "لم" و"إلا"، والقصر في العبارة حقيقي: وذلك لأن المقصود نفي النفع من غير الله تعالى، وتحقيقي؛ لأنه مطابق للواقع، قال السبكي[3] –رحمه الله– في عروس الأفراح: "واعلم أن القصر الحقيقي ينظم حكمين: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه"[4].

فالحكم هو النفع، ولا نافع إلا الله تبارك وتعالى، فتحقق أن القصر حقيقي تحقيقي لا ادعاء فيه ولا مبالغة.

---

(١) مواهب الفتاح: ١/١٨٣.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٢٣٣.

(٣) هو أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي، الإمام العلامة قاضي القضاة بهاء الدين أبو حامد بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن السبكي المصري، صنف شرحا على التلخيص أبان فيه عن سعة دائرة في الفن، توفي بمكة مجاورا ٧٧٣هـ. طبقات الشافعية ــ لابن قاضى شهبة: ٣/٧٨.

(٤) عروس الأفراح: ١/٦٦.

والقصر في هذه العبارة قصر صفة[1]، وهو قصر النفع على نفع مخصوص وهو النفع المكتوب، ويبدو أن القصر "قصر إفراد" مراعاة لحال المخاطب، وهو الطفل الصغير المنزل منزلة المتردد في الحكم لأن الأطفال لا يحسون بالنفع إلا من آبائهم وأمهاتهم أو من يتولى أمورهم، ويدركون ذلك ببساطة، لكن المعلم الأكبر ﷺ جاء بهذا الاسلوب البليغ؛ ليقرر الحقيقة والعقيدة الإسلامية كما هي صافية في نفس الطفل المخاطب[2].

وقد وقع القصر في هذه العبارة بين الجملة الفعلية "ينفعوك"، وبين الجار والمجرور "بشيء"، وهو يلمح إلى غرض بلاغي فكلمة "بشيء" نكرة في سياق النفي مفادها العموم ومما يؤكد عمومها مصاحبة الباء لها، فلا يبقى في ذهن الطفل المخاطب نفع يعتقده في غير ما كتب الله يستثنيه من هذا العموم الشمولي.

ثم عند قوله ﷺ: "ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك".

وقد حللت العبارة المماثلة لها سلفا، وهما متحدتان في الموضوع اتحادا لا يضر معه الاختلاف في الجهة، فالأولى جهة النفع والثانية جهة الضر.

وعند قوله ﷺ: "جفت الأقلام ورفعت الصحف" نجد أن المسند إليه في كلا الجملتين معرف بالألف واللام، وهذا النوع من التعريف؛ لغرض بلاغي وهو الإشارة إلى انتهاء وانقضاء كل ما كتب الله على عباده ليصطحبها الطفل المخاطب في ذهنه، وقد جاء في الإيضاح بيان لفائدة التعريف بشكل عام: "وأما تعريفه؛ فلتكون الفائدة أتم"[3]. فالكتابة أضحت معهودة في ذهن الطفل المخاطب عهدا ذهنيا، وهي لا تكون عادة إلا بالأقلام، ولا يكون محلها عادة إلا في الصحف، فحسن إذن تعريف المسند إليه في الجملتين بالألف واللام، وقد جاء في المطول قوله: "للإشارة إلى معهود، أي: إلى حصة معهودة بينك، وبين المخاطب واحدا كان أو اثنين أو جماعة، يقال: عهدت

---

(١) "وقصر الصفة على الموصوف: وهو أن لا تتجاوز تلك الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر" المطول: ٣٨٢.

(٢) "ويسمى هذا القصر في الاصطلاح "قصر إفراد"؛ لقطع الشركة، أي: لأنك نفيت به الشركة المعتقدة، وأفردت موصوفا بصفة" مواهب الفتاح: ٤٣٢/١.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة: ٢٩.

فلانا، إذا أدركته، وذلك لتقدم ذكره صريحا، أو كناية"[1].

وقد قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: "هو كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها، والفراغ منهما من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه وطال عهده، فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الأقلام التي كتبت بها من مدادها وجفت الصحيفة التي كتب فيها بالمداد المكتوب به فيها، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها"[2].

وجاء الوصل بين جملتي: "رفعت الأقلام" و "وجفت الصحف"؛ وذلك لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، وهو المصطلح عليه بـ"توسط الكمالين"[3]، إن الوصل بين هاتين الجملتين هو تأكيد للمعنى الذي هو الانتهاء التام من كتابة جميع المقادير، وتمام نفوذ قضاء الله تبارك وتعالى في خلقه وهذا المعنى تعاضدت الجملتان في إبرازه وتأكيده بسبب الوصل بينهما، ويبدو للباحث أن الجامع المناسب بين الجملتين: هو الارتباط في الواقع والحس بين الأقلام والصحف.

وقد فصلت جملتا: "يا غلام" الإنشائية وجملة "إني أعلمك كلمات" الخبرية وسبب الفصل هو: شبه كمال الاتصال؛ لتقدير السؤال من المخاطب وتشوقه كذلك للإجابة بعد النداء وكأن تقدير السؤال المحذوف: ماذا تريد أن تعلمني؟، وقد جاء في المطول قوله: "فلكونها أي: الثانية جوابا لسؤال اقتضته الأولى، فتنزل الأولى منزلته، أي: السؤال؛ لكونها مشتملة عليه، ومقتضيه له، فتفصل الثانية عنها، أي :عن الأولى، كما يفصل الجواب عن السؤال"[4]، ولهذا الأسلوب أغراض بلاغية منها: ما يتصل بغرض إيفاء المقصود بالكلام ومنها ما يتصل بفائدة التأديب والتعليم للطفل المخاطب، وقد جاء في مواهب الفتاح قوله: "كإغناء السامع عن أن يسأل تعظيما له، أو شفقة عليه ... كما بين الوالد والولد؛ لقصد تأديبه"[5].

---

(١) المطول: ٢٢٤.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٢٣٣.

(٣) وقد سبق الحديث عنه في تحليل حديث دعاء الوتر في صفحة: ١٩.

(٤) المطول: ٤٤٧.

(٥) مواهب الفتاح: ٥٩٦/١.

ومن أغراض الفصل: عدم قطع الحديث، وإعطاء المتكلم الفرصة؛ لينساق في كلامه الحريص على أن يستوعبه السامع ويعيه، وكذلك لتشويقه وترسيخ المعلومة المناسب للطفل والمتناسب مع قوله ﷺ "يا غلام"، وقد جاء في حاشية الدسوقي قوله: "ومثل عدم انقطاع كلامك أيها المتكلم بكلامه أي: السامع وأنت تحب ذلك أي: مثل إرادة عدم تخلل كلامك بسؤاله؛ لئلا يفوت انسياق الكلام الذي قصد أن لا ينسى منه شيء"(١).

وقد جاء الفصل بين جملتي: "إني أعلمك كلمات" الخبرية وجملة "احفظ الله يحفظك" الإنشائية، وذلك لكمال الاتصال حيث الجملة الثانية بدل بعض من الأولى، والسبب الأول للفصل: هو كون الجملة الأولى خبرية محضة، والثانية إنشائية خالصة.

وقد جاء في عروس الأفراح قوله: "واعلم أن الخبر، والإنشاء المتمحضين لا يعطف أحدهما على الآخر، فيجب الفصل بلاغة"(٢)، وأما السبب الثاني لكمال الاتصال الموجب للفصل بين الجملتين: فهو البدلية البعضيّة للثانية من الأولى، وقد جاء في المطول قوله: "لكون الجملة الثانية بدلا منها، أي: من الأولى؛ لأنها أي: الأولى، غير وافيه تمام المراد"(٣).

وعند ملاحظة الجملة الأولى نجدها مبهمة غامضة، فالطفل المخاطب لا يعرف ماهية "كلمات"، فهو يتطلع إلى تفصيلها وتوضيحها، فجاءت الجملة الثانية بدل بعض منها؛ لغرض أداه الفصل وهو تشويق الطفل المخاطب وتحفيزه؛ لتلقي المعلومة النافعة؛ وذلك لأن إعطاء المعلومة للطفل بعد تشويقه من المتكلم يؤدي إلى ثبوتها ورسوخها في ذهنه، كونها شرحا وبيانا لأمر عظيم، وهو أن من حفظ حدود الله حفظه الله.

يظهر جليا الفصل بين جملتي: "احفظ الله يحفظك" "احفظ الله تجده تجاهك"؛ لكمال الاتصال بينهما، وهو: كون الثانية مؤكدة للأولى في المعنى، إن الطفل المخاطب قد تشوق إلى معرفة المزيد عن: "كلمات" الواردة في أول الحديث، وهاتان الجملتان من

---

(١) حاشية الدسوقي على السعد: ١٠٣/٢.

(٢) عروس الأفراح: ٢١/٣.

(٣) المطول: ٤٢٢

تلك الكلمات والتي لم تنقض بعد، فعندما يعطيه المتكلم معلومة جديدة ويتبعها بأخرى تؤكد المعنى وترسخه في الذهن وهذا غرض جليل أداه الفصل الواقع بين الجملتين.

وقد جاء في مواهب الفتاح قوله: "وأما كمال الاتصال الذي يكون بين الجملتين فيمنع من العطف ... فيتحقق ذلك الكمال بينهما؛ لأجل كون الثانية مؤكدة للأولى توكيدا معنويا، بأن يختلف مفهومها ولكن يلزم من تقرر إحداهما تقرر معنى الأخرى"(١).

ويظهر في أثناء الحديث عند قوله ﷺ: "قد كتبه الله لك"، "قد كتبه الله عليك" أن المسند إليه في كلا العبارتين مذكور وظاهر، وهو: لفظ الجلالة الله، ولا بد لهذا الذكر من نكات وفوائد تناسب حال المتكلم، وتناسب حال المخاطب، وتوضح المقصود والذي هو أمر تثبيت العقيدة الإيمانية البسيطة والقوية، في نفس الطفل المخاطب، وقد اقتبست من الخطيب -رحمه الله- نكات وفوائد مخصوصة من كلامه، تناسب المقامات الآنفة الذكر، يقول الخطيب -رحمه الله-: "وأما ذكره ... أو زيادة في الإيضاح والتقرير أو إظهار تعظيمه أو التبرك بذكره أو استلذاذه أو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب"(٢). وهذه النكات البلاغية أكثرها يتعلق بالمتكلم وهو: رسول الله ﷺ في ذكره للمسند إليه لفظ الجلالة منها: إظهار تعظيمه تبارك وتعالى والتبرك بذكر اسمه واستلذاذ النفس بذكر هذا الاسم الكريم، أما ما يتعلق بالمخاطب وهو: الطفل فهو أي: ذكر المسند إليه "الله" إنما ذكر لزيادة الإيضاح والتقرير؛ ليثبِّت في عقل الطفل ووجدانه هذه العقيدة الإسلامية، وهي أن كل شيء يحصل للإنسان من خير أو شر إنما هو من قضاء الله الذي كتبه سبحانه كما أن بسط الكلام في هذا المقام مطلوب ومرغوب فهو مقام تعليم وإرشاد لطفل يقتضي البسط والشرح.

وهاتان العبارتان السابقتان هما مدار هذا الحديث وأصله الذي يبنـــى عليه جميع ما ذكر قبله، أو بعده، إذ فهم العبارتين، وإدراك المعنى فيهما يهدي الطفل المخاطب -بإذن الله- لكمال الإيمان وتحقيق العبودية لله عز وجل، وتوحيده التوحيد الخالص، قال

(١) مواهب الفتاح: ١/٥٧٥.

(٢) التلخيص: ٥٦.

الإمام ابن رجب -رحمه الله-: "واعلم أن مدار هذه الوصية على هذا الأصل وما ذكر قبله أو بعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر وضر ونفع، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالطاعة وحفظ حدوده"(١).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد والتي يظهر فيها التلطف والإشعار بالمحبة ما جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قدَّمَنا رسولُ الله ﷺ ليلةَ المزدلِفةِ أغَيْلِمَةَ بني عبدِ المطلب على حُمُرات فَجَعلَ يلْطَحُ أفخاذَنا، ويقولُ: "أُبَيْنَيَّ لا تَرمُوا الجمرةَ حتى تطلُعَ الشمسُ" (٢).

ففي هذا الحديث بدأ الرسول ﷺ خطابه لهؤلاء الأطفال بالنداء بالهمزة، وقد جاءت على أصل استعمالها لغة في نداء القريب، بدلالة تلطيخه أفخاذهم، وقد جاء في المعجم الوسيط: "اللطخ: هو القليل من كل شيء"(٣)، ويبرز سؤال: لِمَ لَمْ يستعمل رسول الله ﷺ الياء في النداء لأجل التنبيه وإحضار أذهان الأطفال لسماع واستيعاب كلامه كما هو الحال في أغلب أحاديث الأطفال؟ والجواب: لأن فيها نوعا من التلطف والتودد المتناسب مع "أُبَيْنَيَّ" ومراعاة كذلك مقتضى الحال أو الموقف بجميع أبعاده ومكوناته من الأشخاص والأحداث والمناسبة التعبدية وهي فريضة الحج كلها مجتمعة تقتضي حضور أذهان الأطفال وانتباههم سلفا، فهم في خصم الشعيرة يعيشونها ويؤدون مناسكها وكل من حولهم يلبي والمكان يعج بالذكر والتلبية فلا حاجة إذن للنداء بالياء، والذي لم تتوافر دواعيه.

وفي قوله ﷺ: "أُبَيْنَيَّ" إشعار بحنان الأبوة، والتي تقتضي بطبيعتها الحرص على مصالح الأبناء وخصوصا الدينية من تعليمهم أمور دينهم، وقد جاء في النهاية: "وقد اختلف في

---

(١) جامع العلوم والحكم: ٢٣٢.

(٢) رواه أبو داود، في كتاب الحج، باب التعجيل من جمع، رقم الحديث (١٩٤٠)، ١٩٤/٢. قال الترمذي -رحمه الله-: "حديث ابن عباس حديث حسن صحيح". سنن الترمذي:٢٣٢/٢. قال ابن حجر -رحمه الله-: "وهو حديث حسن". فتح الباري لابن حجر: ٥٢٨/٣.

(٣) المعجم الوسيط: ٨٥٧.

صيغتها ومعناها، فقيل: إنها تصغير أبنى كأعمى وأُعَيْمَى، وهو اسم مفرد يدل على الجمع، وقيل: إن ابْنا يُجمع على أَبْنَا مقصورا وممدودا، وقيل: هو تصغير ابن، وفيه نظر، وقال أبو عبيد: هو تصغير بَنِيَّ مضافا إلى النفس"[1]، ولا تخفى علينا دلالة التصغير؛ لغرض من أغراضه وهو: التدليل والتلطف، وقد جاء في اتفاق المباني وافتراق المعاني: "ويكون التصغير على معنى الرحمة والإشفاق والعطف كقولهم للرجل يا بني ويا أخي وللمرأة يا أخية لا يقصد في هذا قصد التصغير والتحقير وإنما يراد به الرحمة والمحبة"[2]، وفي ذلك تمام المراعاة للمقام فهو مقام أداء مناسك الحج وما يصحب ذلك من مشقات وتعب، فكان التدليل والتلطف مواساة لهؤلاء الأطفال وإدخالا للفرح والسرور على أنفسهم، ويقول بعض علماء نفس الأطفال: "والأطفال يحتاجون إلى الحب والشعور العاطفي والشعور بالانتماء احتياجنا جميعا إليها"[3].

إن في قوله ﷺ: "لا ترموا الجمرة" تصريحا بالمفعول به من البليغ، وهو لفائدة، وهي تحديد مكان وقوع الفعل فهو الجمرة وهذا أليق وأنسب بمقام الارشاد والتعليم الذي يقتضي توضيح وتحديد المعلومات بجميع أوصافها لا يحذف منها شيء، وقد جاء في مواهب الفتاح: "ولا شك أن الفعل مع المفعول كالفعل مع الفاعل في أن الغرض في كل منهما إفادة التلبس به لا إفادة وجود فقط"[4].

ومن الأحاديث التي راعت مقام التعليم مراعاة واضحة بإشراك الأطفال في الأعمال النافعة، حيث يتلقى الطفل المعلومة مصحوبة بالخبرة العملية، وهو ما اعتمده علماء التربية من خلال طرق التدريس الحديثة، ما جاء عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على ناقته: "القط لي حصى"، فلقطت سبع حصيات هن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: "أمثال هؤلاء فارموا" ثم قال: "أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٩.

(٢) اتفاق المباني وافتراق المعاني: ١٤٥.

(٣) كيف نعيش مع الأطفال: ٣٦.

(٤) مواهب الفتاح: ١/٣٧٨.

قبلكم الغلو في الدين"[1].

وفي هذا الحديث خاطب النبي ﷺ طفلا بأمر واضح ومحدد وزاد من وضوحه ذكر متعلقات الفعل، وأولها: الجار والمجرور "لي" فعُني ﷺ بتقديمه؛ إبرازا لأهميته، ولكونه عملا تعبديا يتعلق بمرضاة الله تعالى، ولإشعار الطفل أنه يقوم بعمل لأجل النبي ﷺ - معلم الناس الخير- وليتشرف الطفل بخدمة النبي ﷺ وليعلمه رسول الله ﷺ أهمية التعاون على البر والتقوى.

ثم يأتي ذكر المفعول به "حصى" فهو قيد للفعل جعل المعلومة واضحة محددة، وأفاد تلبس الفعل بها؛ لكونه واقعا عليها والاعتبارات الماضية مناسبة للمقام والذي هو مقام تعليم وإرشاد.

إن إشراك الرسول ﷺ لهذا الطفل في أعمال المناسك، وتشريفه بمهمة وإن كانت جزئية يسيرة نيابة عن النبي ﷺ، وقد حج معه ﷺ في تلك الحجة (حجة الوداع) ما يقارب مائة ألف من أصحابه كلهم مستعد لخدمته، بل وفداءه بالنفس والنفيس، لرسالة قوية للبشرية جميعها تشعر بأهمية إشراك الأطفال في الأعمال الطيبة النافعة وتعويدهم القيام بها؛ زرعا للثقة في أنفسهم ليكونوا رجال الغد وصناع المستقبل الواعد بإذن الله، فيقول بعض علماء التربية: "إن إشراك الطفل في مناشط الجماعة يعزز ظهور القيم الاجتماعية عنده وبالتالي يحترم القانون والنظام"[2].

ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد حديث يظهر فيه كيف تعامل الرسول ﷺ مع النابغين من الأطفال، أو ما يسمى حديثا بـــ: "رعاية الموهوبين"، وذلك بإجراء الحوار معهم لاكتشافهم أولا، ثم الثناء على نبوغهم والتشجيع لهم بالدعاء وهو أعظم محفز لهم، كيف وهو دعاء من رسول الله ﷺ.

۞ فعن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَجَرَّنِي، فَجَعَلَنِي حِذَاءَهُ، فَلَمَّا أَقْبَلَ

(١) رواه وابن ماجه، في كتاب الحج، باب من أين ترمى جمرة العقبة، رقم الحديث (٣٠٢٩)، ٢٢٨/٤. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. البدر المنير: ٢٨٣/٦.

(٢) علم نفس النمو: ٢٤٦.

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَلاتِهِ، خَنَسْتُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لِي: " مَا شَأْنِي أَجْعَلُكَ حِذَائِي فَتَخْنِسُ؟ "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ حِذَاءَكَ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ؟ قَالَ: فَأَعْجَبَتْهُ، فَدَعَا اللهَ لِي أَنْ يَزِيدَنِي عِلْمًا وَفَهْمًا"[1].

وفي هذا الحديث أتى طفل ليصلي مع رسول الله ﷺ صلاة الليل، فلا ينهاه ﷺ ولا يدفعه بل يقربه منه ويجعله حذاءه مسامتا له في القيام، فما كان من هذا الطفل إلا أن تراجع قليلا عن النبي ﷺ كي لا يكون بحذاءه، فيدعه النبي ﷺ حتى تنقضي الصلاة، ويبدأ خطابه له باستفهام "ما شأني؟" يتعجب فيه من فعله، وينكر عليه عدم استجابته لأمره ﷺ الفعلي لا القولي بحكم عدم جواز الكلام في الصلاة.

والقرينة الدالة على أن هذا الاستفهام للتعجب: هي سؤال المستفهم عن حال نفسه وذلك مما يبعد تصوره لغرض الاستفهام المحض؛ لذلك لم يقل ﷺ: "ما شأنك؟"، لأن كل إنسان عالم بأحوال نفسه فوجب صرف الاستفهام لغرض مناسب، وهو فيما يظهر للباحث: التعجب من فعل الغلام، وقد جاء في المطول: "والتعجب هنا نحو: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾[2] تعجب من حال نفسه في عدم إبصاره إياه، ولا يخفى أنه لا معنى لاستفهام العاقل عن حال نفسه"[3].

وفي هذا الحديث يتجلى تفرد الأسلوب وعظمته وبلاغة الرسول ﷺ وحكمته باستخدام أسلوب الاستفهام، والذي هو بمقتضاه يعني سؤال الآخر؛ ليبرر أفعاله أو يدافع عن نفسه أو يدلي بدلوه في الأمر المستفهم عنه، وهذا مما يؤكد احترامه ﷺ لشخصية الطفل وإعطاءه الحق والحرية الكاملة في التبرير لتصرفاته أو في الدفاع عن نفسه وقد عدل ﷺ عن الأسلوب الخبري الجارح أو المحرج، مثل: "أسأت يا غلام، أو أخطأت" إلى أسلوب الاستفهام المناسب للمقام.

---

(١) رواه أحمد في المسند، رقم الحديث (٣٠٦٠)، ١٧٨/٥. قال الحاكم -رحمه الله-: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة" المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٦١٥/٣.

(٢) سورة النمل، آية: (٢٠).

(٣) المطول: ٤١٩.

إن هذا الاحترام والتقدير لشخصية الطفل والذي يجليه استخدام الاسلوب الإنشائي استفهاما لهو مما يربي في الطفل الثقة في نفسه والاحترام والتقدير لمعلمه ومرشده، والولاء لمبادئ معلميه وقيمهم التي يدعون إليها، وقد توصل بعض علماء التربية والنفس إلى أمر وهو: "ومن متطلبات النمو الاجتماعي للطفل في هذه المرحلة من السادسة وحتى الثانية عشرة عدم التعامل معه بأسلوب استبدادي، وإنما اتباع الحكمة"(١).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد حديث سيظهر فيه خلق تعليمي مهم وهو "العدل" بين الناس ولو كانوا أطفالا وتربيتهم على ذلك، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: شَرِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنا عَنْ يَمِينِهِ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَنْ شِمَالِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الشَّرْبَةُ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا "، قَالَ: مَا أُوثِرُ على سُؤْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَدًا"(٢).

ففي هذا الحديث بعد فراغ النبي ﷺ من شرابه اللبن خاطب طفلا هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، وميمونة أم المؤمنين -رضي الله عنها- هي خالته، وخالة الصحابي الجليل خالد بن الوليد ﷺ كذلك، وقد كان عبد الله بن عباس جالسا عن يمينه فقال ﷺ له: "الشربة لك" ونلاحظ تقديم المسند وتعريفه وذكره فقد ذكر المسند إليه وهو الشربة و لم يحذف لغرضين واضحين:

أولهما: استلذاذه، فاللبن من أهم الأشربة، وأكثرها فائدة للإنسان، والعرب كانت تقدمه للضيف؛ إكراما له.

وثانيهما: للتوضيح والتحديد، أن الأمر الذي خاطب فيه الرسول ﷺ الغلام والذي هو حق له، إنما هو "الشربة".

وتقديم المسند إليه للاهتمام بشأنه، حيث أنه هو مدار الخطاب وموضوعه فحسن تقديمه ولأن فيه تعجيلا للمسرة، لأن الأطفال عادة يفرحون ويدخل عليهم السرور بأي شيء يقدم لهم، وفيه تشويق للخبر بعده؛ إذ قد يدور في ذهن الطفل سؤال بعد قوله ﷺ

---

(١) علم النفس النمو: ٢٤٨.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم الحديث (١٩٧٨)، ٤٣٩/٣. قال الترمذي -رحمه الله- "هذا حديث حسن". سنن الترمذي: ٣٨٤/٥. قال محقق المسند -شعيب-: "حديث حسن". مسند أحمد: ٤٤٠/٣.

"الشربة" هل هي لي أم لغيري، يقول الخطيب -رحمه الله- "وأما تقديمه فلكون ذكره أهم، .... وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقا إليه، وإما لتعجيل المسرة"(١).

ومن التشويق للخبر وهو: لك بما تقضيه دلالة اللام من الملك أو الاختصاص، لهو مما يُشوق إليه الانسان خصوصا الطفل فغريزة التملك عنده أشد من غيره، وقد جاء في مواهب الفتاح: "لأن في تقديم المبتدأ تشويقا إليه، أي إلى الخبر؛ لما معه من الوصف الموجب لذلك"(٢).

إن تعريف المسند إليه وهو: "الشربة" الغرض منه الإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب، وهذا المعهود العلمي مدرك حسا في مجلس الخطاب، فحسن تعريفه بالألف واللام، وقد جاء في حاشية الدسوقي: "وقوله باللام إلى قوله للإشارة إلى معهود أي للدلالة على معين في الخارج"(٣).

إن كلمة: "آثرتُ" التي وردت في الحديث الشريف خطابا للطفل هي عبارة مختارة بعناية دون مرادفاتها مثل: أعطيتُ، أو قدمتُ، وكلمة "آثرتُ" مشتقة من الإيثار وهو: تقديم الآخرين على النفس مع احتياج المؤثر، ويقول ابن فارس رحمه الله-: "أثر: الهمزة والتاء والراء ثلاثة أصول، تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي"(٤).
وهذا اللفظ مناسب للمقام، فالطفل المخاطب تأتيه رسالة معينة من رسول الله ﷺ تضمنها اللفظ؛ ليتنبه الطفل إلى خلق إسلامي عظيم مذكور في كتاب الله تعالى:

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾(٥)، والغلام الذكي ابن عباس أدرك ذلك، ولكنه قدم فضيلة سؤر رسول الله ﷺ وهو حق له واضح من دلالة فعل المشيئة، "إن شئت" على التخيير، فاحترم رسول الله ﷺ رغبة الغلام وقدر ذكاءه فأعطاه الشراب.

---

(١) التلخيص: ٧٤.

(٢) مواهب الفتاح: ١/٢٢٠.

(٣) حاشية الدسوقي على السعد: ١/٦٠٤.

(٤) معجم مقاييس اللغة: ١/٣٥.

(٥) سورة الحشر، آية: (٩).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد حديث يظهر فيه تقدير شخصية الطفل واحترام حقوقه، وفي ذلك غرس للقيم والمبادئ الرفيعة في نفوس الأطفال.

فعن سهل بن سعد ﷺ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَدَحٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ أَصْغَرُ القَوْمِ، وَالأَشْيَاخُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ"، قَالَ: مَا كُنْتُ لِأُوثِرَ بِفَضْلِي مِنْكَ أَحَدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ[1].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا في مجلس فيه الأشياخ من الصحابة الكرام أصحاب الفضل والعلم والسابقة إلى الإسلام، والطفل جالس عن يمينه ﷺ، والبداءة باليمين سنة شرعية مرعية، فخاطبه ﷺ بالنداء بـــ "يا غلام" والياء للبعيد، ولما كان من شأن الأطفال غالبا عدم الانتباه ناداه بـــ "يا" تنزيلا له منزلة البعيد أو الغافل الساهي؛ ليتنبه للخطاب الآتي بعد النداء ويدرك مغزاه، ويأتي الاستفهام في هذا الموضع على أصله لغة دون اعتبار مجازي، والحديث فيه إشارة إلى احترامه ﷺ للأطفال واعتبارهم شخصيات لها حقوق تُستأذن في التنازل عنها تخييرا لا إلزاما، وهذا ما أفادته صيغة الاستفهام، ويقول بعض علماء النفس: "لقد مر في تجربتنا أن الأطفال الذين تُحترم مشاعرهم، يميلون إلى احترام مشاعر الكبار"[2].

إن بين الحديثين السابقين تشابها كبيرا، يرى فيه الباحث مجالا للمقارنة بينهما، فهما يدوران حول موضوع واحد وهو تقديم الجالس على يمينه ﷺ في الشراب، ففي قوله ﷺ في الحديث الثاني: "الأشياخ" حث للطفل على التنازل عن حقه في الشربة لمن هو أكبر منه سنا، وأعظم أثرا في الإسلام وسابقة، وقد جاء في لسان العرب قوله: "الشيخ: الذي استبانت فيه السن وظهر عليه الشيب؛ وقيل: هو شيخ من خمسين إلى آخره؛ وقيل: هو من إحدى وخمسين إلى آخر عمره؛ وقيل: هو من الخمسين إلى الثمانين، والجمع أشياخ وشيخان وشيوخ"[3]، بينما في الحديث الأول لم يذكر ﷺ مزية لخالد ﷺ على ابن عباس بل قال ﷺ: "إن شئت آثرت خالدا"، وليس في الخطاب حثٌّ على الإيثار كما

(١) رواه البخاري، في كتاب المساقاة، باب في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوما كان أو غير مقسوم، رقم الحديث (٣٢٥١)، ٣/١٠٩.

(٢) كيف تتحدث فيصغي الصغار: ١٢٢.

(٣) لسان العرب مادة شيخ ٣/٣١.

يتبادر من لفظة الأشياخ في الحديث الأول؛ لأن خالدا كان ابن خالة ابن عباس وكان المجلس عائليا فترتفع فيه عادة الكلفة بين الحاضرين، وفي المجلس أم المؤمنين ميمونة – رضي الله عنها- خالتهما، والخالة بمثابة الأم، وبهذه المقارنة بين الحديثين تتجلى عظمة بلاغته ﷺ في الخطاب.

ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد حديث يتعلق بأمر مهم وهو تغيير العادات السيئة إلى عادات حسنة، هي سنن إسلامية نبوية ترتقي بالطفل في عاداته وآدابه؛ لتكون أكمل وأجمل، وذلك من تمام المراعاة للمقام.

۞ فعن عمر بن أبي سلمة ﷺ قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ" فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[1].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ غلاما كان في حجره تحت رعايته ومسئوليته، وهو ابن زوجه أم سلمة -رضي الله عنها-، وقد قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "في حجره بفتح الحاء، وسكون الجيم، أي في تربيته، وأنه يربيه في حضنه تربية الولد"[2].

فيبدأ خطابه ﷺ بالنداء: يا غلام وأصل الياء لنداء البعيد، واستعملت في القريب تنزيلا له منزلة البعيد، أو الغافل المشغول، فالطفل مقبل على الطعام غير ملتفت لأحد ولا مهتم بشيء سوى الطعام فكان النداء من النبي ﷺ تنبيها له؛ ليعي ما بعد النداء من تعليم وإرشاد إلى تصحيح عادة متكررة يوميا في حياة الإنسان، وهي عادة تناول الطعام، وبعد أن هيأ ﷺ الطفل ذهنيا ونفسيا لتلقي الإرشاد والتعليم شرع مباشرة في تعليمه، فقال له: "سم الله" وهي عبارة موجزة واضحة، فيها إيجاز حذف، فقد حذف الأمر "قل"، وجاء الإيجاز مناسبا للمقام، فالمقام مقام انشغال بتناول الطعام.

ثم عند قوله ﷺ: "وكل بيمينك" إرشاد للطفل باستعمال اليد التي ينبغي أن يؤكل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم الحديث (٥٣٧٦)، ٦٨/٧.

(٢) فتح الباري: ٦٤٧/٩.

بها الطعام، والتي ينبغي أن تستعمل في الأمور الشريفة كلها، لذلك كان من هدية ﷺ أن يستخدم اليد اليسرى في إزالة الأوساخ والقاذورات لتبقى اليمين للأمور الشريفة التي ينبغي مراعاة النظافة فيها: كتناول الطعام والمصافحة وغيرها، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "فمن الآداب المناسبة لمكارم الأخلاق والسيرة الحسنة اختصاص اليمين بالأعمال الشريفة والأحوال النظيفة"(١).

وفي العبارة إيجاز حذف يناسب المقام فقد حذف ﷺ الموصوف وهو اليد وعبر عنه بالصفة وهي يمينك فلم يقل ﷺ بيدك اليمنى لأنها الغرض الأهم بيانه، ثم أنه لا بد من التناول باليد في الأفعال المعتادة، ولأن الإيجاز أنسب لمقام التعليم والإرشاد في موقف كهذا، حيث أن نفس الطفل مقبلة على شهوتها، ويقول بعض علماء النفس حول الكلام الموجز وأهميته في خطاب الأطفال: "أخبرنا كثير من الآباء عن تقديرهم لمهارة الكلام الموجز، وأنهم يرون أنها توفر الوقت واللغو والتفسيرات المملة"(٢).

إن قوله ﷺ: "وكل مما يليك" عبارة موجزة إيجاز حذف، حيث حذف الجار والمجرور وتقدير العبارة قبل الحذف: وكل مما يليك من الصحفة والإيجاز مناسب للموقف، مراع للمقام، وهو إرشاد تربوي تعليمي يتسم بالعدالة والإنصاف ومراعاة آداب النظافة، والرقي والتحضر، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله- "لأن كل أحد كالحائز لما يليه من الطعام فأخذ الغير له تعد عليه مع ما فيه من تقذر النفس مما خاضت فيه الأيدي، ولما فيه من إظهار الحرص والنهم"(٣).

وقد جاء الفصل بين جملة: "يا غلام" وجملة: "سم الله"، لشبه كمال الاتصال بتقدير سؤال بعد الجملة الأولى "يا غلام"، فكأن لسان حاله يقول: ما ذا تريد أن تعلمني يا رسول الله؟ فجاءت الجملة الثانية إجابة لها بالفصل؛ لضيق المقام، وفي مع ذلك مباردة وإسراع، وكأن الطفل المخاطب اشتاق بما سبق.

ثم جاء الوصل بين الجمل الثلاث "سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك"؛ لكونها

---

(١) فتح الباري: ٩/٦٤٨.

(٢) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ١٢٠.

(٣) فتح الباري: ٩/٦٤٨.

جميعا جملا إنشائية لفظا ومعنى، ولكون الجامع بينها أنها جميعها حول موضوع واحد هو آداب تناول الطعام، وكأن اقتران هذه الجمل متعاطفة يشعر الطفل المخاطب بأهمية مراعاتها جميعا.

۞ويطالعنا أسلوب الحوار مع تفعيل أسلوب الاستفهام في مخاطبة فئة من الأطفال ذوي السلوك العدواني نحو المجتمع وكيف استطاع الرسول ﷺ ببلاغته وحكمته امتصاص عدوانية الطفل وتهيئته بتلطف وحنان للتعليم والإرشاد وذلك من المراعاة التامة للمقام، ويظهر أسلوب الحوار في تصحيح الأخطاء في ما رواه الصحابي الجليل رافع بن عمرو الغفاري ﷺ قال: كنت وأنا غلام أرمي نخلنا، أو قال: نخل الأنصار، فَأُتِيَ به النبي ﷺ فقال: "يَا غُلَامَ"، وقال ابن كاسب: "يَا بُنَيَّ لِمَ تَرْمِ النَّخْلَ؟" قَالَ: قُلْتُ: آكُلُ، قَالَ: ﷺ:"فَلَا تَرْمِ النَّخْلَ، وَكُلْ مَا يَسْقُطُ فِي أَسَافِلِهَا "، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسِي، وَقَالَ: "اللهُمَّ أَشْبِعْ بَطْنَهُ"(١).

ففي هذا الحديث بدأ النبي ﷺ الخطاب مع هذا الطفل الذي يسلك منحى عدوانيا في تصرفاته بقوله: "يا غلام" أو "يا بني" وفي النداء بالياء للقريب، تنزيل لهذا الغلام منزلة البعيد لغفلته وانغماره في ملاهي الطفولة مع اعتدائه على حقوق غيره من الناس كل ذلك يجعل النداء بالياء منبها له أحسن تنبيه ليعي ويدرك معنى الخطاب أو الرسالة الإرشادية والتعليمية، الآتية بعد الخطاب، كما أن النداء بـ "يا بني" والتي هي أرق كلمة يُدعى بها الطفل؛ لأنها تحمل معاني الأبوة من عطف وحنان وحرص على تعليم الأبناء واتصافهم بالأخلاق الحسنة، وقد جاء في التحرير والتنوير: "وَالنِّدَاءُ مَعَ حُضُورِ الْمُخَاطَبِ مُسْتَعْمَلٌ فِي طَلَبِ إِحْضَارِ الذِّهْنِ اهْتِمَامًا بِالْغَرَضِ الْمُخَاطَبِ فِيهِ"(٢)، ولتصغيرها دلالة التلطف والحنان بهذا الغلام أو الطفل الذي لا يدرك عواقب الأفعال حتى وإن كانت خطيرة عليه أو على الآخرين، وبعد غمر هذا الطفل بالحنان خصوصا أن إحضاره للرسول ﷺ متلبسا بالاعتداء، وكأنه مقبوض عليه، فكان يحتاج مزيد

(١) رواه الترمذي، في كتاب البيوع، باب ما جاء في الرخصة في أكل الثمرة للمار بها، رقم الحديث (١٢٨٨)، ٢/٥٧٥. قال الترمذي -رحمه الله-: "هذا حديث حسن صحيح غريب". سنن الترمذي: ٢/٥٧٥. قال شعيب الأرنؤوط: "حديث محتمل للتحسين". مسند أحمد: ٣٣/٤٥٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢/٢١٢

طمأنينة؛ ليدافع عن نفسه، وتتجلى الحكمة والبلاغة النبوية باختيار أسلوب الاستفهام والعدول عن الأسلوب الخبري فأسلوب الاستفهام يتضمن غالبا أسلوب الحوار؛ لحدوثه بين شخصين أو أكثر وهو أسلوب يحترم المخاطب ويعطيه الفرص كاملة للتعبير عما بداخله أو للدفاع عن نفسه أو تبرير أفعاله، ويقول بعض علماء نفس الأطفال: "وإذا عبر موقفك من الطفل على أنك سوف تدعه يتكلم كما يشاء، ولكنك لن تسمح له بأن يؤذي أحدا ستهدأ نفسه كثيرا"(١)، وسؤاله ﷺ للطفل "لم ترم النخل؟" يريد به ﷺ وهو إمام المعلمين المربين وهداية الله ورحمته للعالين يريد بالاستفهام اكتشاف الدافع الحقيقي وراء سلوك الطفل وكذلك ليوفر له جو الطمأنينة والأمن؛ لينساق في كلامه والدفاع عن نفسه، وهو مطمئن هادئ النفس، يقول بعض الباحثين: "إذا اهتمننا بتغذية حاسة الطفل بالأمن، فإننا نقدم له كثيرا من الفرص للأعمال الناجحة"(٢).

لقد أحس الطفل بفطرته وطبيعته بهذه الأحاسيس والمعاني الجميلة في خطاب رسول الله ﷺ ولطف تعامله معه فأجاب بكل بساطة: آكل، والأكل حق لكل إنسان لكنه مشروط بكونه حلالا لا حراما، والطفل في هذا السن لصغره ولمحدودية مداركه قد لا يميز بين الحلال والحرام، ويجدر بالمعلم المربي وأولياء الأمور الاقتداء برسول الله ﷺ بأن يوجهوا الأطفال للعمل والسلوك الأقوم والأمثل دون التركيز على استعمال المصطلحات السلوكية بل يراعون ويؤكدون على الوسائل الموصلة لإدراك وفهم تلك المصطلحات وبالتالي تكون النتيجة صالحة وهي تعليم الطفل وإرشاده فقط، فقد أرشد رسول الله ﷺ الطفل للسلوك الأمثل الذي لا عدوان فيه على حقوق الآخرين وممتلكاتهم، فقال ﷺ "فلا ترم النخل، وكل مما يسقط في أسافلها" وقد جاء الوصل بين الجملتين السابقتين لاتفاقهما في الإنشاء لفظا ومعنى ولوجود الجامع بينهما، والذي يظهر للباحث كونهما في موضوع واحد وهو التوجيه للسلوك الأمثل بالنهي في الجملة الأولى والأمر في الجملة الثانية، وفائدة الوصل بين الجملتين لاقترانهما بالعطف يشعر بأهمية مراعاتهما سوية.

---

(١) كيف نعيش مع الصغار: ٨٤.

(٢) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ١٥٦.

ويلاحظ نهي رسول الله ﷺ عن سلوك خاطئ ثم وصل هذا النهي بالأمر بالسلوك الصحيح مما يعني أن واجب من يربي الأطفال أن لا يهمل عند منعهم أو نهيهم عن أي سلوك خاطئ أن لا يهمل توفير البدائل لهذا السلوك من كل بديل صحيح ممكن، بشرط الإباحة الشرعية ثم يختم ﷺ حديثه وخطابه للطفل بالدعاء له بالغنى عن الناس وإشباع بطنه، والدعاء للشخص وهو يسمع مظهر من مظاهر المحبة له، جاء في التحرير والتنوير عند قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[1] "وَلِذَلِكَ انْتَقَلَتْ إِلَى الدُّعَاءِ لَهَا الدَّالِّ عَلَى الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ"[2]، والدعاء يشعر المدعو له بالسرور ويشجعه على التخلق بما يدعى له به، فضلا عن كونه أمرا عظيما حث الله عليه في القرآن الكريم، وهو دليل على محبة الداعي وحرصه على هداية من يدعو له، وصدق الله العظيم: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[3].

۞ ومن الأحاديث التي راعت مقام التعليم والإرشاد ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ "يَا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَالالْتِفَاتَ فِي الصَّلاَةِ، فَإِنَّ الالْتِفَاتَ فِي الصَّلاَةِ هَلَكَةٌ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَفِي التَّطَوُّعِ لاَ فِي الفَرِيضَةِ"[4].

بدأ خطاب الرسول ﷺ لهذا الطفل بالنداء "يا بني" والنداء بالياء للبعيد واستعمل هنا في نداء القريب ليخرج به الطفل من غفلته وليتنبه لما بعده فيفهمه ويستوعبه، ونجد كلمة "بني" المشعرة بحنان الأب وحرصه على ما ينفع ابنه من خير الدنيا والآخرة ومع تصغير "بني" دلالة بأصل الوضع على التدليل والتلطف والرحمة إن النداء وتصغير لفظ يا بني يعد تهيئة ذهنية بالنداء ونفسية بـــ "بني" تتضافر جميعها مراعاة للمقام، حيث هو التعليم والإرشاد، ثم يبدأ أسلوب التحذير بكلمة إياك، والتحذير تنبيه المخاطب على

(١) سورة آل عمران آية: ٣٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٣/٢٣٤

(٣) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٤) رواه الترمذي في كتاب السفر، باب ما ذكر في الالتفات في الصلاة، رقم الحديث (٥٨٩)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب". ١/٧٢٩. قال الألباني –رحمه الله–: "الحديث ليس بصحيح ولا حسن". تمام المنة في التعليق على فقه السنة: ٣٠٩.

أمر مكروه ليجتنبه، وقد ذكر هنا المحذر، وهو: اسم فعل أمر "إياك" والمحذر منه: وهو الالتفات في الصلاة، ومن المعلوم أن الصلاة هي عمود الدين والركن الثاني من أركان الإسلام، وأنها أول ما يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، ولما كانت بهذه الأهمية البالغة في الإسلام وجب التنبيه على ما قد يفسدها، أو ينقص أجرها من المخالفات، كالالتفات فيها، وأسلوب التحذير: أسلوب تعليم ونصح وإرشاد لا أسلوب توعد أو تهديد بالعقاب، فالمخاطب طفل مميز مأمور بالصلاة وفحوى الخطاب النصيحة له إذ هو الأنسب لمقام التعليم، وقد جاء في معاني النحو "ولا يعني بقوله: "إياك ودلج الليل" بالضرورة أنه يحاسبه إن فعل ذلك، بل قد يكون تحذيره له من باب النصح"[1].

إن في جملة "فإن الالتفات في الصلاة هلكة" إظهار في مقام الإضمار للمسند إليه، وذلك لتقدم ذكره، ومن أغراضه أن تصبح الجملة جملة مستقلة يمكن أن تجري مجرى المثل، وهو زيادة في إيضاح المسند إليه وتقريره لأهميته، ويقول الخطيب رحمه الله-: "وإن كان غيره فلزيادة التمكن، نحو: (قل هو الله أحد الله الصمد)"[2].

والإظهار في مقام الإضمار هو من تمام المراعاة لمقتضى الحال والمقام، فالمقام مقام تعليم وإرشاد، والإيضاح وزيادة التمكن هما من أساليب التعليم التي تحقق ثماره المرجوة.

وقد جاء الإطناب بالتكرير لعبارة "الالتفات في الصلاة" للتأكيد ويزيده تأكيدا دخول "إن" المؤكدة على الجملة المكررة، كل ذلك تدليل على أهمية الموضوع وتخويف من مخالفته، كما أن في التأكيد بأسلوبين وهما: "التكرار" و "إن" المؤكدة تنـــزيل للمخاطب وهو الطفل -أنس ﷺ- خالي الذهن مترلة المتردد، الذي يحسن تأكيد الخبر له بمؤكد أو اثنين، والطفل متردد في أن الالتفات ليس بهذه الأهمية الكبيرة في الصلاة ويظنه أمرا عاديا، وهو ليس كذلك، بل هو كما قال ﷺ "هلكة"، وقد جاءت لفظة "هلكة" منكرة دليلا على تعظيم أمرها، وأنها هلكة عظيمة ينبغي التحذير منه، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "وقوله ﷺ فإن الالتفات في الصلاة هلكة أي هلاك؛ لأنه طاعة

(١) معاني النحو: ٢/٩٢.

(٢) التلخيص: ٩٢.

للشيطان، وهو سبب للهلاك"[1]، وقد يكون للطفل المخاطب ظن أو اعتقاد على خلاف ما يخبره به معلمه، فيحسن تأكيد الكلام له؛ ليزول ظنه، أو اعتقاده الخاطئ، ويقول الشيخ عبد القاهر -رحمه الله-: "إنما يحسن التأكيد إذا كان للمخاطب ظن خلاف حكمك"[2].

وفي قوله ﷺ: "فإن كان لا بد ففي التطوع، لا في الفريضة" إيجاز حذف في ثنايا الجملة الشرطية، والتي تستثني بمعناها لا بمبناها حالة جائزة للالتفات في غير الصلاة المفروضة، وقد حذفت كلمة "من الالتفات" للعلم به، بعد قوله "لا بد" لئلا يصرح بالأمر بالالتفات إذ هو مذموم، وحذف جزاء الشرط قبل "ففي" حيث يقدر بـ "فالتفتْ"، وفي إيجاز الحذف مراعاة للمقام فهو مقام تعليم وإرشاد، يقتضي حينا إطنابا، ويقتضي حينا إيجازا، ولأن المخاطب طفل قد لا يستوعب الكلام الكثير وبالأحرى لا يستظهره.

۞ ومن الأحاديث التي وردت في مقام التعليم والإرشاد نجد الرسول ﷺ يراعي حال طفل يخيره في مجلس قضاء يحكم فيه الرسول ﷺ في قضية تخص مستقبله، وذلك من تمام المراعاة للمقام، جاء عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خير غلاما بين أبيه وأمه، وقال: "يَا غُلامُ هَذِهِ أُمّكَ، وَهَذَا أَبُوكَ"[3].

وفي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا بقوله "يا غلام" والنداء بالياء للبعيد وهنا جعل للقريب لفائدة تنبيه الطفل ليستحضر ذهنه فالمقام مقام حاسم حيث أن الاختيار محتم بين أحد الوالدين ويأتي الفصل بين جملة "يا غلام" الانشائية، وجملة "هذه أمك" الخبرية؛ لشبه كمال الاتصال حيث يقدر سؤال من المخاطب بعد الجملة الأولى، وهو: ما أصنع يا رسول الله؟ أغنت عن جوابه الجملة الثانية، والمقام فيه حرج، وهذا الحرج هو وجوب الاختيار بين أحد الوالدين، والمجلس مجلس حكم فحسن الفصل، ثم

---

(١) تحفة الأحوذي: ٢/٥٠٨.

(٢) دلائل الاعجاز: ١٠٠.

(٣) رواه أبو داود، في كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، رقم الحديث (٢٢٧٧)، ٢/٢٨٣. قال الترمذي -رحمه الله-: "هذا حديث حسن صحيح". سنن الترمذي: ٤/٢٤٨. قال الألباني -رحمه الله-: "هذا إسناد صحيح". إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: ٧/٢٥١.

يأتي تعريف المسند إليه في جملتي: "هذه أمك، وهذا أبوك" بالإشارة، ويقول الخطيب -رحمه الله-: "وإن كان بالإشارة فإما لتمييزه أكمل تمييز لصحة إحضاره في ذهن السامع بواسطة الإشارة حسا"[1]، والتعريف بالإشارة مناسب لهذا المقام، والذي يحتاج الطفل فيه أن يميز تمام التمييز لمن سيختار الكينونة في حضانته، وقد جاء في عروس الأفراح: "فالإشارة أكمل ما يكون من التمييز"[2]، وكون الطفل حاضرا هذا المجلس فهو يبصر ما فيه من أشخاص ويحس بقلبه نحو كل منهم إحساس الولد نحو والديه أو أحدهما، وقد يترجح ميله القلبي لأحدهما فينبغي أن يتميز كل منهما بالإشارة، وقد جاء في حاشية الدسوقي: "والتمييز الأكمل هو ما كان بالعين والقلب فإنه لا تمييز أكمل منه، ولا يحصل ذلك التمييز إلا باسم الإشارة"[3].

وقد وصلت جملة "هذه أمك" وجملة "هذا أبوك" للتوسط بين الكمالين فكلاهما خبرية لفظا ومعنى، ولوجود الجامع المناسب بينهما الحسي بالنظر، والعقلي بالإدراك والتمييز.

ومما حسن هذا الوصل اتفاق الجملتين في الاسمية، ويقول الخطيب -رحمه الله-: "ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين في الاسمية"[4].

إن في تقديم جملة: "هذه أمك" دلالة من رسول الله ﷺ وتنويه على عظيم حق الأم، وأنها الأجدر بالتقديم في البر والصلة والإحسان، ولم يستعمل الرسول ﷺ أسلوب التغليب مثل: هذان والداك، ولوجاء به ﷺ لكان مغلبا لجهة الأم حيث أن الولادة تكون منها، ولو عبر ﷺ مثلا بقوله: هذان أبواك لكان فيه تغليب لجانب الأبوة المشعر بالقوة، والمقام يقتضي تمييز الأم عن الاب كل بلفظه الدال عليه، دون أن يتأثر قرار الطفل بإيحاءات تصل إلى ذهنه من خلال الألفاظ، مثل والداك أو أبواك؛ ليختار الطفل الأنسب له منهما، وهذا من كمال بلاغته وحكمته ﷺ.

---

(١) الإيضاح: ٣١.

(٢) عروس الأفراح: ١/٤٤.

(٣) حاشية الدسوقي على السعد: ١/٢٦.

(٤) شروح التلخيص: ١/٧٨.

۞ ولم تخل أحاديث الأطفال الواردة في مقام التعليم والإرشاد من الدعوة إلى الإسلام، فعن الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال: "قَالَ: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمْ"، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: "الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ"[1].

وفي هذا الحديث زار الرسول ﷺ صبيا يهوديا كان يخدمه يزوره بعد أن علم بمرضه، ويخاطبه بكلمة واحدة هي: "أَسلم"، والايجاز فيها واضح، وهو إيجاز قصر مناسب تماما للمقام، فالصبي أو الطفل اليهودي المميز في حالة احتضار قد يموت في أي لحظة فكان الايجاز لازما يطلبه الحال والمقام ويقتضيه.

إن لفظة "أَسلمْ" اختصرت جملتين عظيمتين، وفي ذلك إيجاز قصر[2]، وهي: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، قد قالها الغلام، بعد استئذانه أباه بالنظر، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "قوله فاسلم في رواية النسائي فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله"[3].

فكأن الطفل قد عرف الإسلام من قبل، فقد كان يخدم الرسول ﷺ، ويلاحظ أنه ﷺ لم يناده؛ لأن المقام ضيق جدا.

إن عظيم أخلاقه ﷺ ورحمته بالناس جميعا تتجلى في حرصه على دعوتهم للإسلام، وإن كانوا لا يؤمنون به، فهو لا ينفك أبدا عن هذه الدعوة لكل أحد، ولو كان طفلا؛ رجاء أن ينقذهم الله تبارك وتعالى من النار، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقم الحديث (١٣٥٦)، ٢/٩٤.

(٢) "إن الكلام القليل إن كان بعضا من كلام أطول منه فهو إيجاز حذف، وإن كان كلاما يعطي معنى أطول منه فهو إيجاز قصر". عروس الأفراح: ١/١٠٣.

(٣) فتح الباري: ٣/٢٨١.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ١٠٧.

۞ ومن الأحاديث الواردة في إرشاده ﷺ الأطفال لكيفية إكرام الأضياف ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال: "تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَدَخَلَ بِأَهْلِهِ، قَالَ: فَصَنَعَتْ أُمِّي أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْسًا، فَجَعَلَتْهُ فِي تَوْرٍ[1]، فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ، اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْ: بَعَثَتْ بِهَذَا إِلَيْكَ أُمِّي وَهِيَ تُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي تُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَتَقُولُ: إِنَّ هَذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: "ضَعْهُ"، ثُمَّ قَالَ: "اذْهَبْ، فَادْعُ لِي فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، وَمَنْ لَقِيتَ"، وَسَمَّى رِجَالًا، قَالَ: فَدَعَوْتُ مَنْ سَمَّى، وَمَنْ لَقِيتُ، قَالَ: قُلْتُ لِأَنَسٍ: عَدَدَ كَمْ كَانُوا؟ قَالَ: زُهَاءَ ثَلَاثِمِائَةٍ، وَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَنَسُ، هَاتِ التَّوْرَ»، قَالَ: فَدَخَلُوا حَتَّى امْتَلَأَتِ الصُّفَّةُ وَالْحُجْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ، وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ»، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَ: فَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ، وَدَخَلَتْ طَائِفَةٌ، حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ، فَقَالَ لِي: «يَا أَنَسُ، ارْفَعْ»، قَالَ: فَرَفَعْتُ، فَمَا أَدْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرَ، أَمْ حِينَ رَفَعْتُ"[2].

وفي هذا الحديث بدأ الرسول ﷺ خطابه مع الطفل الذي جاء يحمل الطعام له ولضيوفه بقوله: "ضعه" والخطاب يناسب المقام حيث تعجيل الطعام للضيوف فيه تعجيل للمسرة لهم، ثم يخاطبه ﷺ بعبارة "اذهب فادع فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت" وهو خطاب يناسب المقام، والفصل بين جملتي "يا أنس"، و "هات التور" الإنشائيتين؛ للتوسط بين الكمالين إذ يُقدر سؤال من المخاطب بعد الجملة الأولى وهو: ماذا تريد مني يا رسول الله؟، ومن الأغراض التي يؤديها الفصل الاختصار؛ إذ هو المناسب لمقام التعجيل بإكرام الأضياف.

والفصل بين جملتي "يا أنس" و "ارفع" الإنشائيتين؛ للتوسط بين الكمالين، وهو فصل يراعي المقام؛ كونه مقام تعجيل إكرام الضيوف ينبغي فيه المسارعة بالأفعال، والمقتضي لحذف بعض الكلام في موضعي الفصل السابقين والذي اقتضاه التعجيل

---

(١) التور: إناء من صفر أو حجارة يتوضأ منه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٩٩.

(٢) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، وإثبات وليمة العرس، رقم الحديث (١٤٢٨)، ٢/١٠٥١.

بالضيافة، وهو حذف السؤال المقدر بعد الجملة الأولى: ماذا تريد مني يا رسول الله؟، كما أنه ﷺ قد حذف لفظة "التور" ثانيا بعد أن ذكرها أولا.

إن الاقتضاب في الكلام الذي ظهر في هذا الحديث بأي أسلوب بلاغي هو مناسب لخطاب الطفل، والذي يتسم عادة بقلة الانتباه لمن يخاطبه، فهو للعب واللهو أميل وفيهما أكثر رغبة، وهذا الخطاب المقتضب الموجز يحفزه على التعاون مع الكبار، لذا يقول بعض علماء نفس الأطفال: "لترغيب الأطفال في التعاون مع من يخاطبهم ينبغي إيجاز الكلام"[1].

ونجد ضمن أحاديث الأطفال ما يُظهر بوضوح أسلوب الحوار الهادئ والراقي مع المخالف والذي يعتمد الاستفهام الذي يتيح للمخاطب التعبير بحرية عن ما يعتقده مهما كان هذا الاعتقاد فاسدا أو خاطئا وبعد التحليل للحديث سنلحظ مدى حكمته وبلاغته ﷺ ومراعاته الكاملة لمقام الإرشاد والدعوة إلى الإسلام.

۞ فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ فِي رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ، حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، عِنْدَ أُطُمِ[2] بَنِي مَغَالَةَ[3]، وَقَدْ قَارَبَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ صَيَّادٍ يَحْتَلِمُ، فَلَمْ يَشْعُرْ بِشَيْءٍ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟"، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ[4]، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ، فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ"، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَاذَا تَرَى؟" قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي صَادِقٌ

(١) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ١٠٩.

(٢) الأطم بالضم: بناء مرتفع، وجمعه آطام. النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٥٤.

(٣) قال القاضي عياض رحمه الله-: "وبنو مغالة: كل ما كان عن يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل مسجد النبي ﷺ، وقال بعضهم: بنو مغالة حي من قضاعة". إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٨/٤٧٣.

(٤) هو عبد الله بن صائد، وهو الّذي يقال له ابن صياد، كان أبوه من اليهود، ولا يدرى من أي قبيلة هو، وهو الّذي يقال: إنه الدجال، ولد على عهد رسول الله ﷺ أعور مختونا، ومن ولده عمارة بن عبد الله بن صيّاد، وكان من خيار المسلمين من أصحاب سعيد بن المسيّب، روى عنه مالك وغيره، قال ابن حجر -رحمه الله-: "وفي الجملة لا معنى لذكر ابن صيّاد في الصحابة، لأنه إن كان الدجال فليس بصحابي قطعا، لأنه يموت كافرا، وإن كان غيره فهو حال لقيه النبيّ ﷺ لم يكن مسلما". الإصابة في تمييز الصحابة: ٥/١٤٨.

وَكَاذِبٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "خُلِطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ؟" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا"، قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ"[1].

ففي هذا الحديث بدأ الرسول الكريم ﷺ خطابه مع هذا الصبي ابن صياد بقوله مستفهما: "أتشهد أني رسول الله؟" وذلك لإعطاءه الفرصة وهو الصبي غير المؤمن بالإسلام ولا بنبيه ﷺ ليتحدث عن نفسه ويعبر عن حقيقة اعتقاده، وليعرض عليه كذلك الاسلام، فيرد الصبي رد اليهود الذين هم قومه، والذين يعرفون الحق وينكرونه، بقوله: "أشهد أنك رسول الأُميين" ثم يسأل ابن صياد رسول الله ﷺ قائلا: "أتشهد أني رسول الله؟" فيجيب النبي الكريم ﷺ بإجابة بليغة: "آمنت بالله ورسله" أي أنك يا ابن صياد لست من رسل الله، ويقول الطيبي[2] -رحمه الله-: "والكلام خارج على إرخاء العنان أي: آمنت بالله ورسله، فتفكر هل أنت منهم"[3]، وابن صياد ليس من رسل الله، ورسول الله ﷺ لا يشهد بالكذب وعدول النبي ﷺ عن الإجابة بمثل: لا أشهد أو ما أشهد هو استدراج لابن صياد ليستمر في كلامه ويخرج مكنونات اعتقاده وأعماله المتصلة بالشياطين، والتي هي من أعمال الكهنة فيتضح أمره وحقيقته للناس وخصوصا للصحابة الكرام، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "قال القرطبي: كان ابن صياد على طريقة الكهنة يخبر بالخبر، فيصح تارة ويفسد أخرى، فشاع ذلك، ولم يترل في شأنه وحي، فأراد النبي ﷺ سلوك طريقة يختبر حاله بها أي: فهو السبب الحقيقي في انطلاق النبي ﷺ إليه"[4]، ثم بادره ﷺ باستفهام آخر يتيح له به المجال؛ ليتكلم ويفصح عن حقيقة أحواله، فقال: ﷺ: ما ذا ترى"؟، ولهذا السؤال حكمة بلاغية، فقد جاء في إرشاد الساري "ثم قال لابن صياد ليظهر كذبه المنافي لدعواه الرسالة ما ذا ترى"[5].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: كيف يعرض الإسلام على الصبي، رقم (٣٠٥٥)، ٤/٧٠.

(٢) هو الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي: من علماء الحديث والتفسير والبيان، من كتبه التبيان في المعاني والبيان، توفي -رحمه الله- سنة ٧٤٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي: ٢/٢٥٦.

(٣) شرح الطيبي: ١/٣٤٧١.

(٤) فتح الباري: ٦/٢٠٨.

(٥) إرشاد الساري: ٩/١٠٣.

فأجاب ابن صياد يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: خلط عليك الأمر. وقد جاء في النهاية: "يقال خولط فلان في عقله مخالطة إذا اختل عقله"[1]، كما أنه قد جاء في إرشاد الساري: "خُلِّط عليك الأمر بضم الخاء المعجمة وتشديد اللام المكسورة أي خلط عليك شيطانك ما يلقي إليك"[2]، وجاء فيه أيضا: "قوله خلط: أي ما يأتي به شيطانك، فخلط معناه أنه كان له تارات يصيب في بعضها، ويخطئ في بعضها، فلذلك التبس عليه الأمر"[3].

وتخليط الأمر على ابن صياد هو بسبب تعاقب الشياطين عليه بين صادق وكاذب، وذلك مما جعله لا يرى الحق حقا، فيؤمن برسول الله ﷺ.

وفي هذه العبارة النبوية "خلط عليك الأمر" جاء المسند إليه معرفا بالألف واللام وذلك للإشارة إلى معهود في الخطاب أو الحوار السابق لهذه العبارة حيث أجاب ابن صياد عند سؤال رسول الله ﷺ له "ما ذا ترى" فأجاب: "يأتيني صادق وكاذب" فهذا الإتيان لابن صياد مرة بالصدق ومرة بالكذب هو من الشياطين الذين هم إخوان الكهنة، وهو الأمر المعهود قريبا في الحوار؛ لذلك كان تعريف المسند إليه أخصر طريق وأوضحه للتنبيه على حقيقة أمر ابن صياد.

وهذا الأمر المعهود بين المتكلم والمخاطب واسع المعنى، محتمل لعدة دلالات مجازية مرتبطة في أصلها بالمعنى الحقيقي للعهد[4].

ويلاحظ أنه ﷺ قدم الجار والمجرور المتعلقان بالمخاطب وهو ابن صياد على المسند إليه وهو العمدة، وهذا التقديم يفيد اختصاص ابن صياد بتخليط الأمر عليه وحده وقصر ذلك عليه، وكأنه قصر إضافي فالحوار بينه وبين رسول الله ﷺ.

ثم جاء السؤال أو الاستفهام الأخير منه ﷺ لتكتمل سلسلة الاستفهامات بالاستفهام الرئيس، وهو كون ابن صياد دجالا من الدجاجلة يتعامل مع الشياطين، ويلقون إليه

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٥٧.

(٢) إرشاد الساري: ٩/١٠٤.

(٣) المصدر السابق (١٠/٣٤٧٢).

(٤) "وأصل العهد الإدراك، واللقاء حسا، فاستعمل في مطلق الإدراك المتقدم، لاستلزام اللقاء للإدراك في الجملة" مواهب الفتاح: ١/١٧٩.

المعلومات والكلام مشوشا أو ناقصا، فيقول ﷺ: "إني قد خبأت لك خبيئا" والاستفهام مقدر في آخر الجملة الخبرية، أي فما هو؟ فقال ابن صياد: هو الدخ، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "فإن عند أحمد عن عبد الرزاق في حديث الباب وخبأت له "يوم تأتي السماء بدخان مبين" وأما جواب ابن صياد بالدخ، فقيل إنه اندهش فلم يقع من لفظ الدخان إلا على بعضه"(١).

وقال الرسول ﷺ لابن صياد "اخسأ فلن تعدو قدرك"، والأمر للتحقير والزجر، فابن صياد قد تجاوز قدره، وادعى ما ليس عنده، فكان المناسب زجره وتأييسه من محاولة ما يصبو إليه من ادعاء علم الغيب، وقد جاء في التحرير والتنوير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾(٢) "(اخْسَئُوا) زَجْرٌ وَشَتْمٌ بِأَنَّهُمْ خَاسِئُونَ، وَمَعْنَاهُ عَدَمُ اسْتِجَابَةِ طَلَبِهِمْ، وَفِعْلُ خَسَأَ مِنْ بَابِ مَنَعَ وَمَعْنَاهُ ذَلَّ، وَنُهُوا عَنْ خِطَابِ اللَّهِ وَالْمَقْصُودُ تَأْيِيسُهُمْ مِنَ النَّجَاةِ مِمَّا هُمْ فِيهِ(٣).

ومناسبة هذا التحقير للمقام تظهر في كون ابن صياد ظن أنه استطاع كشف الغيب وأحس بالعظمة في نفسه، وما ذلك إلا من تلاعب الشيطان به مما يسترقه له من كلام الناس، يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "احتمال أن يكون النبي ﷺ تحدث مع نفسه أو أصحابه بذلك أي: الدخان، قبل أن يختبره، فاسترق الشيطان ذلك أو بعضه"(٤).

وقد جاء بد الدين العيني بتعريف أوسع للفظة اخسأ: "اخسأ، فلن تعدو قدرك، أي لست بنبي، ولن تجاوز قدرك، وإنما أنت كاهن، فلن تجاوز يعني قدر الكهان، قوله "اخسأ" في الأصل لفظ يزجر به الكلب، ويطرد، من خسأت الكلب خسأً طردته، وخسأ الكلب نفسه يتعدى ولا يتعدى، واخسأ أيضا، وهو خطاب زجر واستهانة، أي: اسكت صاغرا مطرودا"(٥).

---

(١) فتح الباري: ٦/٢٠٨.

(٢) سورة المؤمنون آية: ١٠٨.

(٣) التحرير والتنوير:١٨/١٢٩.

(٤) فتح الباري: ٦/٢٠٩.

(٥) عمدة القارئ: ٨/٢٤٧.

ويلاحظ كون المسند إليه في "تعدو" ضميرا، لأن المقام مقام خطاب، وجعل المسند إليه ضميرا أخصر للكلام وأنسب للمقام حيث يحصل كمال التعيين للمخاطب.

واستخدام أداة النفي "لن" مع الفعل المضارع هي الأنسب للحال والمقام حيث يوضح الرسول ﷺ أن هذا الكاهن الآن وقت المحاورة وفي المستقبل لن يعدو قدره بل سيظل كأمثاله من الكهان والدجاجلة في التخليط والتخبط ما بقي، ولو خاطبه الرسول ﷺ بقوله: لم تعدُ قدرك لكان ذلك إخبارا عن حاله في الماضي فقط دون الحاضر والمستقبل، إن ذلكم الحوار الذي دار بين رسول ﷺ وبين ابن صائد قد كشف حقيقته للناس جميعا فلن يرتاب أحد بعد ذلك في حقيقة أمره، وقد جاءت هذه القصة برواية أخرى فعن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: لقي نبي الله ﷺ ابن صائد ومعه أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- قال وابن صائد مع الغلمان، فقال له رسول الله ﷺ: "أتشهد أني رسول الله؟" قال: أتشهد أني رسول الله؟ فقال نبي الله ﷺ: "آمنت بالله، وبرسوله" قال فقال رسول الله ﷺ: "ماذا ترى؟" قال: أرى عرشا على الماء، فقال ﷺ: "ترى عرش إبليس على البحر" قال: انظر ما ترى، قال: أرى صادقين وكاذبين، فقال رسول الله ﷺ: "لُبِس على نفسه فَدَعَاهُ"[1].

وفي هذا الحديث ظهر في خطابه ﷺ لابن صياد عند قوله: "أتشهد أني رسول الله" أنه يعرض عليه الإسلام حيث كان هذا الصبي من يهود المدينة، والعبارة مكونة من جملتين: كبرى وصغرى، حيث أن في كل منهما إسنادا، وذلك مما يقوي العبارة، ويجعلها تحمل معاني التأكيد والاهتمام بهذا الأمر، وكأن هذا الاستفهام خارج عن معناه إلى الحث على الاستجابة وقد سبق بالجملة الدعائية "تربت يداك"، وقد ورد في رواية ابن مسعود ﷺ في صحيح مسلم "تربت يداك، أتشهد أني رسول؟"[2]، ففي الجملة الأولى وهي: الخبرية لفظا الانشائية معنى والتي تحمل معنى التحذير والوعيد والأمر التوبيخي بمعنى: اشهد بأني رسول الله، وإن لم تفعل فقد تربت يداك، أي التصقتا

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، رقم الحديث (٢٩٢٥)، ٤/٢٢٤١.

(٢) رواه مسلم، صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد، رقم الحديث (٢٩٢٤)، ٤/٢٢٤٠.

بالتراب حسرة وندامة[1]، وفي هذا حث لابن صائد على فعل المأمور به والاهتمام به. وهذا الأسلوب يُظهر حرصه ﷺ على نجاة كل إنسان، بغض النظر عن كونه عربيا أو غير عربي فهو ﷺ حريص على إسلام هذا الصبي اليهودي.

والاستفهام في قوله ﷺ مخاطبا ابن صائد، "ما ترى؟" يراد به إعطاء الفرصة للمخاطب ليتحدث عن نفسه وأحواله؛ لتظهر حقيقة أمره للحاضرين والسامعين، فأجاب ابن صياد، أرى عرشا على الماء فقال ﷺ: "ترى عرش إبليس على البحر".

وقولهﷺ هذا فيه توضيح لحقيقة أمر ارتباط هذا الصبي بالشياطين وتلقيه منهم، وقد خصص رسول الله ﷺ وهو المؤيد بالوحي خصص ووضح طلاسم هذا الكاهن بتعريفه للعرش عند ما أضافه للشيطان الرجيم إبليس، ثم زاد توضيحا وتخصيصا لكلمة ابن صياد: على الماء، بأن هذا الماء هو "البحر" فمياه الأرض متنوعة، ثم يعود ﷺ عليه بالسؤال لتتضح حقيقة ما يدعيه من كونه رسولا من الله، فيخاطبه ﷺ "انظر ما ترى؟" وفي هذا التركيب المكون من جملتين كبرى وصغرى يتكرر الإسناد للاهتمام والتأكيد حتى يحفظ رسول الله ﷺ بهذا الحوار المنصف مع ابن صياد على الناس إيمانهم وصفاء عقيدتهم، فيجيب ابن صياد: أرى صادقين وكاذبين، وهذا اعتراف منه بالتخليط وتلبيس الحق بالباطل والصدق بالكذب عنده، وهذه قطعا ليست أحوال الرسل والأنبياء.

۞ ونجد الرسول ﷺ يبين لبعض الأطفال طريقة التعامل مع آبائهم، وسيتضح من خلال التحليل مراعاته ﷺ لمقام التعليم والإرشاد، فعن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا مَعَهُ غُلَامٌ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: "مَنْ هَذَا؟" قَالَ: أَبِي. قَالَ: "فَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ، وَلَا تَسْتَسِبَّ لَهُ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ، وَلَا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ"[2].

---

(١) جاء في النهاية: "وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به، كما يقولون قاتله الله. وقيل معناها لله درك. وقيل أراد به المثل ليري المأمور بذلك الجد وأنه إن خالفه فقد أساء". النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٨٤.

(٢) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب النهي أن يسمي الرجل أباه باسمه، رقم الحديث (٣٩٥)، ١/٣٥٣. قال سليم الهلالي: بأنه حديث منكر. انظر: عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب: عمل اليوم والليلة لابن السني: ١/٤٤٩.

وفي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا يمشي مع والده باستفهام: من هذا؟ والاستفهام قد خرج لغرض بلاغي، وهو لفت نظر الطفل إلى ما ينبغي أن يكون منه نحو أبيه، وقد يكون الاستفهام على ظاهره، لأن الغلام قد يمشي مع من هو أكبر منه ولا يكون أباه، إذن لِمَ يقرر الرسول ﷺ هذا الطفل بأمر يعرفه الطفل تماما، وهو متأكد منه؟ إن لهذا التقرير أغراضا منها:

أولا : تنبيه الطفل على استحضار ذهنه لما سيلقى إليه بعد الاستفهام.

ثانيا: تعظيم مكانة الأب عند الطفل.

ثالثا: التدرج والبدء في التعليم والإرشاد بالمسلمات البسيطة.

رابعا: تكوين القناعة لدى الطفل بحقوق والده عليه[1].

ونراه ﷺ بعد سماع الإجابة من الطفل يقول له: "فلا تمش أمامه" مما يعزز أنه ﷺ أراد من الاستفهام التقريري ما قدمت، وعقبه بالفاء المفيدة للتعقيب دون مهلة، والمرتبطة بالإرشادات حرصا على وحدة الموقف التعليمي وترابط مكونات الخطاب فيرشده ﷺ أن يحترم أباه ويظهر هذا الاحترام بأن لا يتقدمه في المشي، وأما قوله ﷺ: "ولا تستب له"، وقد جاء في النهاية "وفي حديث أبي هريرة ﷺ لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستب له أي لا تعرضه للسب وتجره إليه بأن تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك"[2].

وخاطب الرسول ﷺ الطفل بقوله "ولا تجلس قبله" أي في المجالس إكراما له ووفاء بحقه.

ثم يطالعنا الإرشاد الأخير عند قوله ﷺ: "ولا تدعه باسمه" أي لا تناده ولا تخاطبه باسمه مجردا، بل بقولك: يا أبي، أو نحو ذلك، وما سبق كله مما يعزز احترام الأطفال لآبائهم ليفوزوا برضاهم.

وقد وصلت الجمل الأربعة وهي: "فلا تمش أمامه، ولا تستب له، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه" وذلك للتوسط بين الكمالين، فالجمل كلها متفقة إنشاء لفظا ومعنى،

---

(١) مواهب الفتاح: ٤٩١/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٧٧/٢.

وكذلك لوجود الجامع بينها، وهو الأب، وجامع آخر هو اتحاد المسند إليه في الجمل كلها مع التناسب بينها كونها في موضوع واحد وهو آداب التعامل مع الوالد، ومن باب أولى الوالدة، وهذا العطف بين الجمل الأربع يشعر أنها جميعا أمور مهمة ينبغي للأطفال مراعاتها.

ونجد في الأحاديث الواردة في مقام الإرشاد والتعليم وصفا حقيقيا لحال الآباء مع أطفالهم وما قد يجلبه فرط المحبة لهم من خصال مذمومة وسيتضح من خلال التحليل عظيم حكمته وبلاغته ﷺ ووضوح بيانه وتأكيده للمعاني مما هو مناسب لمقام التعليم والإرشاد.

۞ فعن الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم -رضي الله عنها- قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وهو محتضن أحد ابني ابنته، وهو يقول: "إنكم لتُبخِّلون، وتُجبِّنونَ، وتُجَهِّلون، وإنكم لمن رَيْحَانِ اللهِ"(١).

وفي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا وهو محتضن له، وفيه بلاغة بالحركة؛ شفقة ورحمة بالأطفال، ويبدأ خطابه بالتوكيد المستفاد من "إن" ثم يردفه بلام التأكيد مع الفعل المضارع، "لتبخلون" وهذا التأكيد قد جاء لفائدة بلاغية حيث أن الأبناء والأطفال نعمة من الله يفرح بها الوالدان، ويشكران الله عليها فكيف تكون هذه النعمة سببا رئيسا لحمل الوالدين على الأخلاق المذمومة من: البخل والجبن والجهل وهذا حكم يتردد المخاطب في قبوله، بل وقد يتعجب فينكره من هذه الحيثية لا من كونه قول الصادق المصدوق ﷺ، ولذا جاء المؤكدان في الأفعال الثلاث، لأنه ﷺ أراد مزيد تأكيد لهذ الأمر الذي قد يستغربه المخاطب، فقد جاء في موجز البلاغة: "وقد يجيء التوكيد بـ "إن" لمجرد الاهتمام بالخبر دون إنكار كقول النبي ﷺ: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا" ومن ذلك أن يكون في الخبر غرابة كالمثل "إن البغاث

(١) رواه الترمذي، في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حب الولد، رقم الحديث (١٩١٠)، ٣٨١/٣. قال الترمذي -رحمه الله-: "حديث ابن عيينة، عن إبراهيم بن ميسرة، لا نعرفه إلا من حديثه، ولا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعا من خولة". سنن الترمذي: ٣٨١/٣. قلت: فالحديث منقطع. قال ابن حجر -رحمه الله-: "فيه انقطاع". إتحاف المهرة لابن حجر: ٩٢٩/١٦

بأرضنا يستنسر"[1].

إن معنى قوله ﷺ "لتبخّلون، وتجبّنون، وتجهّلون" أي تكونون سببا في تخلق الآباء والأمهات بهذه الأخلاق المذمومة، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "الصيغ الثلاث من باب التفعيل أي تحملون على: البخل والجبن والجهل"[2]، يلاحظ من خلال هذا التحليل لتركيب الجمل أنه ﷺ لم يذم الأطفال، ولم يحملهم المسؤولية في أخطاء آباءهم، وإنما أراد تنبيه الآباء والأمهات ألا يميلوا بحكم ما جبلوا عليه من المحبة لأبنائهم ميلا يتجاوز الحدود الشرعية ولا يخفى أن الخطاب في هذا الحديث يحتمل احتمالا راجحا توجيه الخطاب للطفل، حيث أن الكاف في "إنكم" للمخاطب، وهي قرينة لفظية، ولو كانت للآباء لعدل ﷺ إلى قول "إنهم" والقرينة الحالية، وهي حمله للطفل، وإن كانت ليست بقوة القولية ودرجتها، إلا أنها تقوي القرينة القولية، كما يحتمل الخطاب –بمرجوحية– التعريض للوالدين، وليس ذا من موضوع الدراسة.

إن الجمل الثلاثة "لتبخلون وتجبنون وتجهلون" قد وصلت للتوسط بين الكمالين حيث أنها كلها جمل خبرية لفظا ومعنى، ولوجود الجامع الأقوى بينها وهو اتحاد المسند إليه في الجمل الثلاث وهو واو الجماعة، وهذا الوصل مناسب للمقام، حيث تفرض طبيعة الموضوع وصل الجمل لتتم الفائدة للمخاطب، بكمال التوضيح المتسلسل دون فصل، بل ولتشعر بخطورة كل منها بما يكتسبه من الاجتماع بما يشبه دلالة الاقتران، أو مراعاة النظير.

إن المسند إليه في الجمل الثلاث ضمير متصل، وهو "واو الجماعة" واختياره ﷺ للضمير دون الاسم الظاهر "الأولاد أو الأبناء" يعود لكون المقام مقام خطاب وعناصر الموقف من متكلم ومخاطب وسياق كلها محسوسة مشهودة.

ونجد في الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد حديثا يقرر حقيقة مهمة وهي: تقدير ومراعاة الجمال في كل شيء، وليس فقط في المظاهر بل في الألفاظ والأسماء، وسيظهر بعد التحليل لخطابه ﷺ تمام المراعاة للمقام.

---

(١) موجز البلاغة: ١٢.

(٢) تحفة الأحوذي: ٣٢٨/٥.

۞ فعن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- "أن رسول الله ﷺ غير اسم عَاصيةَ[1]، وقال: أنتِ جَمِيلة"[2].

وفي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلة بعد أن عرف اسمها فلم يرضه، فيقول لها: أنت جميلة، واسمها غير مرغوب فيه شرعا؛ لما فيه من الإيماء إلى تلبس المسمى بما سمي به أو ببعضه من العصيان، جاء في تحفة الأحوذي: "كانوا يسمون بالعاص والعاصية ذهابا إلى معنى الإباء عن قبول النقائص والرضا بالضيم، فلما جاء الإسلام نهوا عنه"[3].

إن المسند إليه "أنتِ" هو ضمير خطاب، وإيقاعه للإشعار بخصوصية توجيه الخطاب إلى هذه الطفلة.

إن الرسول ﷺ يغرس في نفس هذه الطفلة بعبارته هذه أن اسمها عاصية ليس فيه جمال، وأن الجمال مطلوب ومحبوب، وله تقديره ليس فقط في المظاهر والأخلاق بل حتى في أسماء الناس.

ومن الأحاديث الواردة في مقام التعليم والإرشاد والتي يظهر فيها تلطفه ﷺ مع الأطفال، وخصوصا عند قيامهم بأعمال خاطئة، إذ غرض المعلم المنصف الناجح هو الفائدة وليس غرضه العقاب والتعنيف.

۞ فعن الصحابي الجليل عبد الله بن بسر المازني رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَتْنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقِطْفٍ مِنْ عِنَبٍ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ أُبَلِّغَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا جِئْتُ بِهِ أَخَذَ أُذُنِي وَقَالَ: "يَا غُدَرُ"[4].

---

(١) عاصية: ابنة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه . انظر: شرح النووي على مسلم: ١١٩/١٤.

(٢) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، رقم الحديث (٢١٣٩)، (١٦٨٧/٣).

(٣) تحفة الأحوذي: ٢٥٣/٧.

(٤) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب تسمية الرجل بما يشبه عمله، رقم الحديث (٤٠١)، ٣٥٦/١. انظر: عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني: ٤٥٤/١. قال سليم الهلالي: "إسناده ضعيف؛ عبد الله بن بسر الحبراني؛ ضعيف الحديث". عجالة الراغب المتمني في تخريج كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السني: ٤٥٤/١.

وفي هذا الحديث الذي يدور حول طفل أُرْسِل بهدية إلى الرسول ﷺ فأكل من هذه الهدية، وذلك قبل أن يوصلها لصاحبها المرسلة إليه ﷺ، ولما حضر الطفل عند رسول الله ﷺ علم أن الطفل قد أكل من قطف العنب، وعِلْمه ﷺ بأكل الطفل من العنب إما بالوحي، وإما أنه رأى عصارة العنب، أو بقاياه على فم الطفل أو ثيابه، فأراد أن يعلمه درسا في حفظ الأمانة، وبأن فعله غدر لا يجوز، فبدأ بالنداء بالياء، وهي للبعيد، وجعله ﷺ لهذا الطفل القريب؛ لينبهه لمقام التعليم، فقال ﷺ: "يا غدر"، وقد جاء في كتاب البارع في اللغة توضيح لهذه اللفظة: "وتقول العرب للرجل: يا غُدَر. في معنى يا غادر، ولا يقال إلا في النداء، لا يقال هو غدر"[1]، وقد أخذ الرسول ﷺ بأذنه؛ ليعي الطفل أن المراد تعليمه وإرشاده لتجنب هذا الخلق المذموم وهو الغدر، وقد أشار بعض علماء النفس إلى هذا الأمر حديثا، فقالوا: "عند ما تكون الكلمات التي نوجهها للأطفال مضمخة بمشاعرنا الحقيقية المتعاطفة حينئذ تنفذ مباشرة إلى قلوبهم"[2].

(١) البارع في اللغة: ٢٨٩.

(٢) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ٣٧.

المبحث الثاني: الصور البيانية والمحسنات البديعية

الصور البيانية.

توطئة:

سأعتني في هذا المبحث بمسائل علم البيان الموجودة في أثناء الأحاديث الشريفة، وكذلك المحسنات البديعية؛ لتظهر الصورة واضحة ومتكاملة عن بلاغة الرسول ﷺ في خطابه مع الأطفال ودقة مراعاته ﷺ لمقام التعليم والإرشاد، ويظهر للباحث أن قلة الصور البيانية في خطاب الأطفال من تمام المراعاة لحالهم، إذ إدراك وفهم الصور البيانية يتعذر على قدرات الأطفال العقلية غالبا، وما جاء في هذا المبحث من الصور البيانية: من باب الكناية مثالان اثنان فقط، ولم تكن الكناية فيهما بعيدة بل قريبة لتُفهم، ومثالان للاستعارة، ومجاز عقلي واحد.

۞ ففي حديث ابن عباس: "يا غلام إني أعلمك كلمات" جاءت صور بيانية، منها قوله ﷺ:" رفعت الأقلام" كناية عن انقضاء وانتهاء ما كتب الله على جميع خلقه من نفع أو ضر، وكذلك في قوله ﷺ: "جفت الصحف" كناية –كذلك– عن انتهاء، وانقضاء جميع مقدورات الله في خلقه، وهي كذلك تؤكد معنى الكناية الأولى.

إن في قوله ﷺ: "جفت الصحف" مجاز عقلي[1]، فقد أسند الجفاف إلى الصحف وهو إسناد إلى المجاور، والأصل أن الذي يجف هو الحبر وهذا الإسناد أفادنا إيضاحا بأن ما كتب في هذه الصحف ثابت باق لا مجال لتغييره، فهذه الصورة البيانية أبلغ من الحقيقة.

وفي حديث "ابن صياد" عند قوله ﷺ –لابن صياد: "خُلِّط عليك الأمر" استعارة تبعية[2]، فقد استعار ﷺ لفظة "خلط" بدلا من "اشتبه" لتدلنا هذه الصورة على مدى ما وصل إليه حال ابن صياد من التخبط واشتباه الأمور عليه حتى صارت مختلطة في ذهنه،

---

(١)المجاز العقلي: قال الخطيب –رحمه الله–: "ومنه مجاز عقلي: وهو إسناده إلى ملابس له غير ما هو له بتأول". التلخيص: ص٤٥.

(٢) الاستعارة التبعية: قال الخطيب القزويني –رحمه الله–: "وإلا فتبعية كالفعل وما يشتق منه". التلخيص: ص٣٢٦.

ولا يؤدي هذا المعنى بصورته التي تشعر بحقيقة ما وصلت إليه حال ابن صياد النفسية من هذه الصورة البيانية الرائعة.

۞ ونجد في حديث خولة بنت حكيم –رضي الله عنها– قوله ﷺ: "وإنكم لمن ريحان الله"، استعارة أصلية تصريحية[1]، فقد استعار رسولﷺ الريحان وهو النبت الطيب الرائحة للأولاد، والجامع بين المستعار والمستعار له جامع حسي وهو الشم والضم، فكما أن الريحان يستطاب شمه كذلك الأولاد يستطاب ضمهم وشمهم، وفي إضافة الريحان إلى الله تشريف وتكريم للأولاد، وقد جاء في المجازات النبوية: "وللريحان هاهنا وجهان: أحدهما يكون الكلام به استعارة .....، وأما الوجه الذي يكون به استعارة فهو أن الريحان هاهنا يراد به النبت المخصوص الذي يُستطاب للشميم، فجعل الولد بمنزلته لأنه يستلذ شم ريحه، ويستروح إلى استنشاق عرفه، وعادة الناس معروفة في شم الولد وضمه، وأصل الريحان مأخوذ من الشيء الذي يُستروح إليه، ويُتنفس من الكرب به"[2].

إن الكناية مناسبة للمقام، حيث الطفل متطلع وخياله منفتح وعقله متقد، فتأتي الصورة البيانية؛ لتشبع هذا الفهم والتطلع، وتجلي ما سبق من معلومات بطريق البيان والتصوير المبهر والشائق، يقول الشيخ عبد القاهر: –رحمه الله–: "وإن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصناعات، وجُلُّ العول في شرفه على ذاته وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته، ويرفع من قدره"[3].

إن الكناية في العبارتين إنما هي كناية عن صفة معنوية، وهي: انقضاء وتمام كتابة مقادير الله على خلقه، وقد عبر عنها بأمور حسية.

إن الكنايتين قريبتان واضحتان[4]؛ لقلة الوسائط بين المعنى المنتقل إليه والمعنى المنتقل

---

(١) الاستعارة الأصلية التصريحية: قال الخطيب القزويني –رحمه الله–: "وباعتبار اللفظ المستعار قسمان، لأنه إن كان اسم جنس فأصلية، كأسد للرجل الشجاع". التلخيص: ص٣٢٥.

(٢) المجازات النبوية: ٣٧.

(٣) أسرار البلاغة: ٢٦.

(٤) قال التفتازاني –رحمه الله– في تعريفة للكناية القريبة: "والقريبة قسمان: واضحة يحصل الانتقال منها

عنه وذلك مما يناسب حال الطفل وقدراته؛ ليستوعب ويدرك مغزى الكناية ويتأثر بإشراق الصورة وينبهر بأضواءها، فيقوي ذلك ثبات المعلومات في ذهنه، وما سبق واضح قريب، فالانتقال من رفع الأقلام وجفاف الصحف أو طيها هو الأقرب لموضوع الكتابة؛ إذ الكتابة لا تكون إلا بالأول "الأقلام"، ولا تكون إلا على الثاني، "الصحف". والفائدة المعنوية لهذه الكناية ترسيخ الإيمان في قلب الطفل المخاطب.

وعند قوله ﷺ: "تربت يداك" كناية عن الخسران المصاحب للحسرة، والندامة، فالخاسر دائما فاقد لكل شيء لا يملك، إلا أن يلصق يديه بالتراب الذي لا ثمن له، وهي كناية واضحة، فالانتقال من معنى الخسران، والندامة الحاصل بتتريب اليدين قريب ممن خسر وندم أعظم الندامة؛ لتركه الدخول في دين الاسلام، وهذه الكناية صورة واضحة تجلي حال الرافض لدخول الاسلام بهذه الصورة اليائسة مع الندم والحسرة حيث لا يجد صاحبها شيئا يتمسك به أو يعود إليه إلا التراب، وابن صياد المخاطب قد قارب البلوغ[1]، فخياله واسع وقدرته على استيعاب دلالات الصور البيانية ومعانيها أسهل، وقد جاء في النهاية: "ترب الرجل، إذا افتقر أي: لصق بالتراب ... وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدعاء على المخاطب، ولا وقوع الأمر به، وقيل: أراد به المثل ليرى المأمور بذلك الجد، وأنه إن خالفه فقد أساء"[2].

إن الكناية هنا قد تسمى: "إيماء، وإشارة"؛ لأنها كادت تقارب بوضوحها كونها محسوسة، وقد جاء في مواهب الفتاح: "وإن قلت الوسائط أو انعدمت بلا خفاء فالمناسب أن تسمى به تلك الكناية: "الإيماء والإشارة" وإنما سميت هذه إشارة؛ لأن أصل الإشارة أن تكون حسية وهي ظاهرة ومثلها الإيماء"[3].

بسهولة" المطول: ٦٣٢.

(١) ورد في الحديث "وقد قارب ابن صياد أن يحتلم". صحيح البخاري: رقم الحديث (٣٠٥٥)، ٤/٧٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٧٤.

(٣) مواهب الفتاح: ٢/٤٦٩.

المحسنات البديعية.

توطئة:

في هذا المجال سيكون البحث في المحسنات البديعية اللفظية منها والمعنوية التي تندرج في ثنايا الأحاديث الشريفة؛ ليظهر الباحث صورة متكاملة لبلاغة الرسول ﷺ في خطابه مع الأطفال، ودقيق مراعاته لمقام التعليم والإرشاد.

۞ ففي حديث الحسن في دعاء القنوت محسنات بديعية منها قوله ﷺ: "اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت".

في هذه الجمل محسن هو رد العجز على الصدر وهو "التصدير"[1]، ويظهر في العبارات الثلاث في بداية كل عبارة ونهايتها بين "اهدني، وهديت" وكذلك بين "عافني، وعافيت" و "تولني، وتوليت" فكلها تنتهي بنفس المقطع "الياء، والتاء" و "توليت، عافيت، وتوليت"، ولا يخفى على السامع مدى التناغم والترابط السلس الذي أحدثه هذا المحسن في الكلام، مع ما تضمنه من تكرير يثبت المعلومات وذلك مناسب للمقام، إذ المقام مقام تعليم، يطلب فيه سهولة الفهم والاستيعاب، وكذلك سرعة الحفظ.

ويظهر السجع بين العبارات فكلها تنتهي بنفس المقطع وهي: توليت هديت عافيت، والسجع محسن لفظي كثير الاستعمال في القرآن الأسمى والمعجز بلاغة لجميع البشر، وقد جاء منسابا متدفقا مع نفس المعاني الإيمانية موضح لها، بجرْسه الإيقاعي مما يسهل استيعاب الكلام، وحفظه لدعاء يردده المسلم كل ليلة تقريبا في صلاة الوتر، وهذا التناسب يناسب الصغار، ويُسهل حفظ الذكر، ويُلاحظ أن لا تكلف في هذا السجع، وأنه تابع للمعاني، مما يجعله مقبولا في العقول، عذبا في الاسماع، ويقول الشيخ عبد القاهر -رحمه الله-: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه"[2].

---

(١) يقول الخطيب رحمه الله-: "وهو في النثر أن يُجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة، والآخر في آخرها". التلخيص: ٣٩٣.

(٢) أسرار البلاغة: ١١.

ومما يحسن هذا السجع اختلاف الفاصلتين القرينتين[1] في المعنى، إذ تكرير المعنى نفسه بألفاظ مختلفة عي، وإفحام لا يليق بأبلغ البشر ﷺ. وتساوي القرائن في هذا السجع في عدد حروفها في الأغلب هو مما يزيد السجع قوة وتأثيرا وحسن أثر في المستمعين، كل هذا ساهم في سهولة الذكر، وتيسير حفظه ورسوخه في نفس الطفل، ويقول الخطيب -رحمه الله-:" وأحسن السجع: ما تساوت قرائنه؛ كقوله تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾"[2].

كما يظهر محسن معنوي آخر في هذا الحديث وهو مراعاة النظير بما يطلق عليه "تشابه الأطراف"[3]، ونجده في بدايات الدعاء: من قوله ﷺ: "اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك"، وخاتمته والتي هي: "تباركت ربنا تعاليت". فالتناسب واضح حيث أن الخاتمة مناسبة للمقدمة، وقد ورد في المقدمة دعوات يرغب في حصولها كل مسلم وهي: العافية والهداية وتولي الله للعبد، والبركة في كل شيء والوقاية من كل شر، ثم نجد في الخاتمة قوله ﷺ: "تباركت ربنا وتعاليت" ففيها الثناء على الله ببركاته التي لا تحصى على جميع مخلوقاته، وخصوصا المؤمنين، وفي قوله ﷺ: "ربنا" إشعار بعظمة الرب، فالله هو الرب المربي لجميع الخلق بنعمه، ثم إن "تعاليت" تنزيه، وتقديس لهذا الرب العظيم الشأن صاحب القدرة المطلقة ومن كانت هذه صفته كان هو القادر على إجابة دعاء عباده المؤمنين، وتحقيق رغباتهم، ولأن ما بدئ به الكلام من الدعاء والطلب هو من الرجاء للرب تبارك وتعالى وذلك سبب وعلة لإجابة الدعاء، كان التناسب واضحا بين المقدمة والخاتمة[4]، وتتجلى مراعاة المقام والحال بربط هذا الطفل وجميع المؤمنين في دعائهم الله وحده عند طلب جميع الحاجات، وتظهر المناسبة التامة بين خاتمة

---

(١) "القرينتين: أي الفقرتين، سميت بذلك لأنها تقارن الأخرى". حاشية الدسوقي على السعد: ٤/٧٤.

(٢) التلخيص: ٢٤٨.

(٣) "ومن مراعاة النظير ... قسم يسميه بعضهم:" تشابه الأطراف" وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى". التلخيص: ٢٤٨.

(٤) "أي القسم الذي يسمى من المراعاة تشابها هو: أن يختم الكلام بما يناسب ابتداء في المعنى، إما لكون ما ختم به كالعلة لما بدأ به أو العكس أو كالدليل عليه أو نحو ذلك". مواهب الفتاح: ٢/٤٩٩.

الكلام وبدايته.

۞ وفي حديث تعويذ الحسن والحسين نجد قوله ﷺ: "أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة" سجعا ذو ثلاث فواصل يملأ الأسماع بأصوات عذبة سلسة متناسقة، لا تنقص المعاني حقها، فالمعاني مستوفية لكل ما سيقت لأجله في الفواصل، وكل فاصلة تكمل معنى الأخرى؛ لتضيف معنى آخر جديدا، فالمعنى الأول هو الاستعاذة بكلمات الله وهو الأصل الذي ينبغي الابتداء به، والاستعاذة أمر عام، فجاء تفصيل هذا الأمر العام بفقرات مسجوعة استوفت كل ما يخافه الإنسان على نفسه وولده من شر الشياطين والهوام عند قوله ﷺ: "من كل شيطان وهامة" وكذلك من شر العين والتي هي حق عند قوله ﷺ: "ومن كل عين لامة".

إن المد اللازم في "هامة" و "لامة" يزيد التناسب بين الألفاظ، ولعله يضبط حفظ الطفل، كما أن الطفل عندما تقع كلمات مسجوعة على مسامعه، يجد لها خفة وراحة وطربا يهش ويقبل بها على الحديث، فيسهل عليه حفظه، والتعوذ به دائما، وهذا ملاحظ ومشاهد، وهو من الأذكار اليومية للمسلم، أو مما ينبغي أن يكون كذلك.

إن في قوله ﷺ في حديث ابن عباس –رضي الله عنهما–: "كان أبوكم يعوذ بها إسماعيل، وإسحاق" محسنا معنويا، وهو تشابه الأطراف، فلما كان رسول الله ﷺ يعلم هذين الطفلين المباركين، وكذلك جميع المؤمنين أطفالا وراشدين، لما كان يعلمهما الاستعاذة بالله من الشرور ناسب ذلك ذكر إبراهيم عليه السلام، وأنه كان يعوذ ولديه إسماعيل وإسحاق –عليهما السلام– بهذه الاستعاذة المباركة، وذلك شأن الأبوة فرسول الله ﷺ أب معنوي لكل المؤمنين تعليما وإرشادا حبا وشفقة وحرصا على الخير، ودفعا ومقاومة لكل ما قد يتربص بهم من شرور تنغص عليهم صفو الحياة كشرور الشياطين والعين والحسد، بل ومن كل هامة ضارة، أيا كان نوعها، وتتضح مراعاة الحال، والمقام؛ بإيراد هذا المحسن حيث كان دليلا على ما سبق من الكلام، وموضحا لحقيقة الأبوة وما تعنيه من عطف وحنان.

۞ وفي حديث ابن عباس –رضي الله عنهما– "احفظ الله يحفظك ...." تتجلى ألوان من البديع المعنوي واللفظي وأولها في قوله ﷺ: "يا غلام إني أعلمك كلمات" حيث

تتضح براعة الاستهلال[1].

فالمقام مقام تعليم وإرشاد، يحتاج فيه المتكلم إلى تنبيه جميع حواس الطفل المخاطب، وقد اجتمعت الأدوات البلاغية الموقظة للحواس والجالبة للتنبيه في حديثه ﷺ من النداء والتأكيد، ومن كون المسند إليه ضمير المتكلم، فالمقام مقام خطاب، ومن التنكير لـــ "كلمات" دلالة على عظمتها، و أهميتها، كل ذلك يجعل المخاطب مقبلا بحواسه وعقله؛ لما سيلقى إليه متلهفا للمزيد، ويزيد ثقة المخاطب- وهو الطفل- في المتكلم، ويدرك أن وراء هذا الخطاب من الرسول ﷺ قلبا رحيما؛ ليثق به ونورا مبينا؛ ليقتبس منه، ويقول الخطيب –رحمه الله-: "لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان عذبا، حسن السبك، صحيح المعنى، أقبل السامع على الكلام، فوعى جميعه؛ لانسياق النفس إليه، ورغبتها فيه، من حسنه الأول، واستصحابه لذة المذاق السابق"[2].

وفي نفس الحديث عند قوله ﷺ:" رفعت الأقلام، وجفت الصحف" حسن الختام، فإذا تذكرنا قول الخطيب -رحمه الله- في حسن الانتهاء: "وأحسنه ما آذن بانتهاء الكلام"[3]، عرفنا بلاغة ختام هذا الحديث، فهذه العبارة بما حوته من ألفاظ "الأقلام"، و"الصحف" تشعر بانتهاء هذا الحديث التعليمي الإيماني العظيم، دون وجود فجوات بين الكلام، استهلالا، أو عرضا، أو اختتاما، قد تربك الطفل المخاطب، أو تشتت ذهنه، وقد جاء في مواهب الفتاح: "لأن الانتهاء آخر ما يفهمه السامع ويحفظه من القصيدة أو الخطبة أو الرسالة، ويرتسم في نفسه، فإن كان ذلك الانتهاء مختارا حسنا تلقاه بغاية القبول، واستلذه استلذاذا"[4].

وعند قوله ﷺ:" احفظ الله يحفظك"، و"إذا سألت فاسأل الله"، و"إذا استعنت فاستعن بالله" يتجلى محسن معنوي وهو التصدير، ونجده بين بداية كل عبارة ونهايتها

---

(١) يقول الخطيب -رحمه الله-:"ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه، حتى تكـــون أعـــذب لفظا، وأحسن سبكا، وأصح معنى، أحدها الابتداء ... وأحسنه ما يناسب المقصود: ويســـمى: براعـــة الاستهلال". التلخيص: ٤٢٩- ٤٣٠.

(٢) مواهب الفتاح: ٧٠٦/٢.

(٣) التلخيص: ٤٣٥.

(٤) شروح التلخيص: ٥٤٣/٤.

"احفظ ... يحفظ، سألت .... فاسأل، استعنت .... فاستعن" وهو مناسب لمقتضى الحال والمقام؛ لما يتضمنه من تكرار يؤكد المعنى في نفس الطفل ويسهل عليه حفظ ألفاظه.

وعند قوله ﷺ:" ينفعوك"، و "لم ينفعوك"، و" يضروك"، و" لم يضروك" طباق سلب[1]، حيث المعاني كلما تطابقت بالتضاد، أو الإثبات والنفي كان ذلك مدعاة لتوضيح وبيان كل منها فـــ "ينفعوك" الأولى توضح "لم ينفعوك" الثانية، والثانية توضح الأولى.

وكذلك عند وقوله ﷺ:" لك"، و" عليك" طباق بين حرفين إذ هما متضادان في المعنى فـــ "لك" هي مكاسب الإنسان التي يفرح بها، و" عليك" هي التبعات والمسئوليات عليه، والتي يئن تحت ثقل وطأتها.

وقد جاء في حاشية الدسوقي: "وذلك لأن "اللام" تشعر بالملكية المؤذنة بالانتفاع، و" على" تشعر بالعلو المشعر، بالتحمل، أو الثقل المؤذن بالتضرر، فصار تقابلهما: أي "اللام"، و" على" كتقابل النفع، والضرر، وهما ضدان"[2].

وكل ما سبق يخدم المقام، ويراعيه فالمعاني من صميم عقيدة الاسلام فلا نفع ولا ضرر إلا بإذن الله وحده، وقد كُتب القضاء والقدر، فناسب أن يكون توضيح هذه القضية بالطباق القائم على التقابل.

۞ ونجد عند قوله ﷺ: لعمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: " وكل بيمينك، وكل مما يليك" سجعا متوازيا متساويَ القرائن أو الفقرات، ويظهر جليا ورود هذا السجع تابعا للمعنى لم ينقص منه شيئا، وهو مراع لمقتضى الحال أو المقام أو الموقف التعليمي الذي يحسن فيه السجع لسلاسة ألفاظه، وتناغمه وحلاوة جرسه وانتظام إيقاعه، مما يجعل الطفل المخاطب يقبل عليه بلهفة، ويسارع إلى حفظه والعمل به، وقد تحقق ذلك الأمر، فراوي هذا الحديث هو صاحب الموقف، ولم يروه إلا عن كبر سن.

---

(١) "طباق السلب وهو أن يجمع بين فعلي مصدر واحد، أحدهما مثبت، والآخر منفي، فيكون التقابل بين الإيجاب، والسلب". مواهب الفتاح: ٤٨٩/٢.

(٢) حاشية الدسوقي على السعد: ١٠٨/٤.

۞ وفي حديث الغلام الذي خيره ﷺ بين والديه عند قوله ﷺ:" هذه أمك، وهذا أبوك" محسن معنوي، هو مراعاة النظير[١].

فقد جمع ﷺ في خطابه لهذا الطفل المتنازع على حضانته جمع له والديه، أي جمع له بين المتناسبين، فكلاهما والد له محب له مشفق عليه، وقد جاء في مواهب الفتاح: "بل بالتوافق في كون ما جمع من واد واحد، لصحبته في إدراك، أو لمناسبة في شكل، أو لتوقف بعض على بعض"[٢]، والمحسن هنا ذو وظيفة تتماشى مع الموقف، وتراعي مقتضى الحال، فالطفل في حال اختيار حصرية تحتاج وجود جميع الأطراف لا في الحس فقط بل حتى في دلالة الجمع بين الأطراف في الخطاب؛ لتتضح له الأمور، ويتخذ القرار الأصلح.

۞ وفي حديث ابن صياد عند قوله ﷺ -إجابة لسؤال ابن صياد: أتشهد أني رسول الله؟- فقال ﷺ:" آمنت بالله ورسله" محسن معنوي: هو الأسلوب الحكيم[٣].

فرسول الله ﷺ يسأل ابن صياد سؤالا إجابته محددة "أشهد" أو "لا أشهد" فلا يجيبه الرسول ﷺ بأي منهما ولكن أجاب عن سؤاله إجابة لا يتوقعها ولا ينتظرها السائل (ابن صياد) وهي قوله ﷺ "آمنت بالله ورسله".

إن خلق رسول الله ﷺ وهو الخلق العظيم، يأبى أن يرد على المعاند الجاحد إلا بكمال الأدب واللطف، لذا جاء الرد النبوي الكريم بالأسلوب الحكيم، وفي الأسلوب الحكيم لطف في الرد وتأدب يليق بكل متكلم، وقد جاء في عروس الأفراح: "وفيه لطف باعتبار الرد على المتكلم على وجه بلغ الغاية في التأدب وعدم المواجهة بالرد"[٤]، كما أن الموقف مع الصبي موقف الحوار والمناظرة، والذي يستلزم بطبيعته -كما يقول العلماء- التنـــزل للخصم ومجاراته للوصول إلى الحق، فلو أجاب ﷺ بغير الأسلوب

---

(١) مراعاة النظير: "هو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد". التلخيص: ٣٥٤.

(٢) مواهب الفتاح: ٤٩٨/٢.

(٣) قال الخطيب -رحمه الله-:" ومنه القول بالموجب، وهو ضربان: أحدهما ... والثاني حمل لفظ وقـــع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه". التلخيص: ٣٨٦، "واعلم أن هذا الضرب الثاني من القول بالموجب هو الأسلوب الحكيم". عروس الأفراح: ٣٧٥/٤.

(٤) عروس الأفراح: ٣٧٤/٤.

الحكيم كأن يقول: "لا أشهد، أو يا كاذب"، لانتهى الحوار، وضاعت فرصة إسلام الصبي، ويحتمل أن مثل هذا الأسلوب الحكيم قد تسبب في إسلامه[1]، فرسول الله ﷺ أرسل رحمة الله للعالمين.

إن من أعظم النكات أو الفوائد التي جاء بها الأسلوب الحكيم في هذا الحديث: هي تنبيه المخاطب بشكل غير مباشر إلى الاهتمام، والتركيز على الإجابة التي جاء بها بالأسلوب الحكيم؛ إذ يرى المتكلم أنها أجدى، وأنفع للسائل، والجدير به أن يهتم بها.

۞ وفي قوله ﷺ: "وإنكم لمن ريحان الله"، محسن معنوي وهو الاحتراس[2]، وفيه تطييب لخواطر الأطفال وذكر لمحاسنهم وشكر لله على نعمة إيجادهم، واحتراس من أن يتشاءم الآباء والأمهات من أولادهم، وأنه لا مزايا ولا محاسن تذكر لهم[3]، وبهذا يتجلى الإنصاف حيث أن ذكر المساوئ لا ينبغي أن يلغي ذكر المحاسن، لأهمية ذكر الايجابيات مع السلبيات، وعدم الاكتفاء بذكر واحد منهما فقط، وكلمة "من ريحان الله" كلمة معبرة حيث أن الريحان هو الطيب المشموم، وإضافته لاسم الجلالة رد للنعمة إلى واهبها الحقيقي، وشكر له، وتشريف للأطفال، وقد جاء في النهاية: "فيه إنكم لتبخلون وتجهلون وتجبنون وإنكم لمن ريحان الله، يعني: الأولاد، الريحان يطلق على الرحمة والرزق والراحة، وبالرزق سمي الولد ريحانا"[4].

---

(١) "وإن كان قد ظهرت منه علامات الخير وصحة الإسلام والإقلاع عن مقاله قبل ، وحجه وجهاده مع المسلمين -والله أعلم- وقد ترجم الطبري وغيره عليه في تراجم الصحابة" . إكمال المعلم شرح صحيح مسلم - للقاضي عياض: ٤٦٦/٨. قال ابن حجر -رحمه الله-: "وفي الجملة لا معنى لذكر ابن صيّاد في الصحابة، لأنه إن كان الدجال فليس بصحابي قطعا، لأنه يموت كافرا، وإن كان غيره فهو حال لقيه النبيّ ﷺ لم يكن مسلما، لكنه إن كان مات على الإسلام يكون كما قال ابن فتحون على شرط كتاب الاستيعاب". الإصابة في تمييز الصحابة: ١٤٩/٥.

(٢) قال الخطيب -رحمه الله-: "وإما بالتكميل، ويسمى الاحتراس أيضا، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه". التلخيص: ٢٢٩.

(٣) وللدسوقي -رحمه الله- كلام نفيس عن تداخل البديع والمعاني أحيانا، فقال: "فإن قلت: هل الجمع المذكور من البديع أو المعاني؟ قلت: يمكن الأمران لمناسبة المقام وعدمه، فإن كان الإتيان به مناسبا للمقام، بأن اقتضى المقام مزيد التأكيد في إمالة قلب السامع كان من المعاني، وإن قصد المتكلم بالجمع المذكور مجرد الظرافة والحسن كان من البديع". حاشية الدسوقي على السعد: ٢١٥/٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٤٢/٢.

۞ وفي حديث عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– الذي غير فيه رسول الله ﷺ اسم الطفلة "عاصية"، وعند قوله ﷺ: "أنت جميلة" للطفلة التي كان اسمها عاصية، يظهر محسن معنوي، هو: "المطابقة" للجمال مع العصيان، فـ "عاصية" في حقيقة الكلمة قبح، وشين، بيد أن المطابق لـ "عاصية" بديهة هو كلمة طائعة أو مطيعة، فالطاعة مطابقة للعصيان، ولما كان العدول عن كلمة طائعة من رسول الله ﷺ عدولا عن التزكية للنفس، وهو الأمر المنهي عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]، و قال رسول الله ﷺ: "لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم"[2]، ولم يشأ أن يسميها طائعة، أو مطيعة، واختار ﷺ في المقابل كلمة "جميلة، ليقرر ﷺ ويعلم الطفلة وسائر الأطفال أن الطاعة هي جمال كامل في حد ذاتها، وحقيقتها جمال، والتطابق[3] في الحديث اعتباري يهدف إلى غاية وهي التعليم والإرشاد النبوي الكريم.

(١) سورة النجم آية:٣٢.

(٢) أخرجه صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوهما رقم الحديث: (٢١٤٢)، ٣/ ١٦٨٧.

(٣) التطابق هو: "الجمع أي في الذكر بين متضادين أي معنيين متضادين في الجملة، أي سواء أكان التقابل من وجه ما، أم من كل وجه، وسواء أكان التقابل حقيقيا أو اعتباريا". عروس الأفراح: ٤/٣٢٩.

الفصل الثاني: حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام التودد.

المبحث الأول: خصائص النظم.

توطئة:

سيتعرض الباحث في هذا المبحث لدراسة وتحليل نظم الأحاديث الشريفة، والتي بلغ عددها في هذا الفصل عشرة أحاديث لتبيين عظيم بلاغته ﷺ في التخاطب مع الأطفال، ودقيق مراعاته لمقام التودد والتلطف بالأطفال.

۞ ومن هذه الأحاديث ما جاء عن الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ مُقْبِلِينَ - قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ - مِنْ عُرُسٍ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ مُمْثِلًا فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ". قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ [1].

ففي هذا الحديث بدأ الرسول ﷺ خطابه لهؤلاء الأطفال ومن معهم بقوله: "اللهم"، والتي معناها يا الله[2]، ويرد النداء بالياء وهي للبعيد، لكنه نداء لله تبارك وتعالى[3] وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، بيد أن عظمته وجلاله وهيمنته على خلقه تجعل داعيه في مقام اعتباري بعيد عن تلك الحضرة الإلهية العظيمة، وقد جاء في مواهب الفتاح: "لا تستعمل في القريب إلا مجازا؛ لتنـــزيله منزلة البعيد، إما لاستبعاد الداعي نفسه عن مرتبة المنادى، أي: تصور نفسه في مكان بعيد عن تلك الحضرة، كقولنا يا الله مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد"[4]، ونكتة أخرى لكلمة "اللهم" كونها لإشهاد الله تبارك وتعالى على الكلام الآتي بعدها، وصدقه، مع ما فيها من التبرك باسم الله، والتلذذ به[5].

وهؤلاء الأطفال المخاطبون في الحديث قادمون من مناسبة عرس، كلها بهجة وفرح فكان من المراعاة لمقتضى الحال والمقام أن يخاطبهم رسول الله ﷺ بما يزيد الفرح

---

(١) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ للأنصار: "أنتم أحب النـــاس إلي"، رقـــم الحديث (٣٧٨٥)، ٥/٣٢.

(٢) سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول: ١٥.

(٣) لقد اعتمد الباحث في تحليله لكلمة "اللهم" على اعتبارها في علم النحو، وهو أصل علم المعـــاني علـــى اعتبارها نداء، صيغته "يا الله".

(٤) مواهب الفتاح: ١/٥١٧.

(٥) "وتقديم لفظ اللهم للتبرك، أو للاستشهاد بالله في صدقه" إرشاد الساري: ٦/١٥١.

والبهجة، فقال: "أنتم من أحب الناس إلي"، وهنا جاء المسند إليه ضميرا، لأن المقام مقام خطاب لا يشعر بخصوصيته إلا الضمير، فناسب استخدامه في هذا الموضع.

وقد جاء التكرير في الحديث ثلاث مرات، لعبارة: "أنتم من أحب الناس إلي" وهو إطناب فائدته التأكيد للمحبة، وهؤلاء الأطفال بحاجة إلى التأكيد، لأنهم كانوا يرون بأعينهم بل ويعايشون حنان ورحمه ومحبة الرسول ﷺ لأبناء بناته وأبناء عمومته والذين يربيهم في حجره وكذا أطفال المهاجرين، فربما ظنوا أن محبته ﷺ مقصورة على هؤلاء الأطفال فقط، فأراد ﷺ توضيح الأمر لأطفال الأنصار بل ولأمهاتهم وأخواتهم، فأتى بالعبارة مكررة، يقول علماء نفس الأطفال: "عند ما تكون الكلمات التي نوجهها للأطفال مضمخة بمشاعرنا الحقيقية المتعاطفة حينئذ تنفذ مباشرة إلى قلوبهم"[1].

إن استخدام حرف الجر "مِنْ" له دلالة مميزة في النظم، إذ أدخل هذا الحرف الأطفال غير المخاطبين في محبة رسول الله ﷺ، وهو الصادق المؤيد بالوحي من الله تبارك وتعالى، إذ لو قال ﷺ: "أنتم أحب الناس إلي" دون "مِنْ" لكانت محبته لأطفال الأنصار المخاطبين فقط، ولعل العبارة دون "مِنْ" تشمل غير الأطفال المخاطبين، فمحبته ﷺ حاصلة لكل الأطفال.

إن اسم التفضيل "أحب" قد يشعر بكمال المحبة، فعدول الرسول ﷺ عن ألفاظ مثل: "أحبكم" أو "أنتم أحبابي" هو عدول من أبلغ البشر، ولا يكون إلا لغرض، فاسم التفضيل أدق وأكمل في إيصال المعنى المطلوب للأطفال المخاطبين، وقد جاء في الكليات: "وقد يستعمل أفعل لبيان الكمال والزيادة في وصفه"[2].

إن استخدام ضمير المتكلم في عبارة "من أحب الناس إلي" دون الاسم الظاهر مثل "إلى الرسول" أو "إلى محمد" هو الأنسب للمقام؛ إذ الضمير أخصر، ولو قال إلى الرسول أو النبي لكان فيه إشارة إلى خصوصية وإظهار وراءه إشارات قد لا تناسب الصغار، والضمير هو الأنسب والأليق بالمقام، حيث أن المقام مقام تودد، وتلطف، يحسن التعبير فيه بالضمير، لما يوحي به من القرب والخصوصية والتعريف التام، وهذا

(١) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ٣٧.

(٢) الكليات لأبي البقاء: ٣٩.

أنسب للأطفال خصوصا؛ إذ الضمير كما يقال أعرف المعارف بعد اسم الله تبارك وتعالى.

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: "يَا أُنَيْسُ أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟" قَالَ قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا أَذْهَبُ، يَا رَسُولَ اللهِ[1].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا كان قد أرسله لحاجة له، فتأخر الطفل عنه، فخرج ﷺ يبحث عن الطفل، فوجده، فأمسكه من قفاه، والرسول ﷺ يضحك، وضحكه دليل على عدم حقده، أو غضبه على الطفل، ثم يناديه بـــ "يا" وهي لنداء البعيد، ونزله ﷺ منزلة البعيد ليتنبه، ويخرج من سورة وغمرة اللهو واللعب، ثم خاطبه ﷺ باسمه مصغرا، تدليلا له، وعطفا عليه، وتقديرا لطفولته البريئة، وقد جاء الخطاب موجزا إيجاز قصر، "اذهب حيث أمرتك"، فحيث: ظرف مبهم، قد يكون تفسيره كلاما كثيرا، لأن المقام يقتضي الإيجاز، فالطفل لاه لاعب، وقد تأخر، فضيق المقام يستوجب الإيجاز، وفيه كذلك عتاب لطيف غير ظاهر.

إن معاملته ﷺ لهذا الطفل وقد أخر أداء ما كلف به بالعطف والحنان، مع أن من البدهي أن يعامله باللوم، والتعنيف لخطأه، دليل على كريم أخلاقه ﷺ، وعميق معرفته بالطبائع البشرية، وكيفية التعامل معها، ومن ثم الارتقاء بها للأكمل فقد أشعر الرسول ﷺ الطفل المذعور بالأمان وساعده على تخطي الخوف، وهذا مما يجعل الأطفال ذوي شخصيات متزنة معتدلة وهمم عالية تسعى إلى النجاح، وقد توصل بعض الباحثين إلى هذا الأمر فقالوا: "إذا اهتممنا بتغذية حاسة الطفل بالأمان فإننا نقدم له كثيرا من

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، رقم الحديث (٢٣١٠) صحيح مسلم ٤/١٨٠٥.

الفرص للأعمال الناجحة"[1].

۞ ومن الأحاديث التي يظهر فيها مقام التودد والتلطف ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ - قَالَ: أَحْسِبُهُ - فَطِيمًا، وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ: "يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ" نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ[2].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا لم يتكلم بعد، وعمره حوالي سنتين، أو أكثر، بعد أن رأى حزنه على الطير، الذي كان يلعب به، وقد مات هذا الطير، كما في رواية أخرى للحديث، وهو نغر، جاء في الفتح: "وهو طير صغير، ... قال عياض: النغر طائر صغير، معروف يشبه العصفور"[3]، فخاطبه ﷺ تودد له، وتسلية له، عن حزنه، لفقد طيره المحبوب، ب "يا أبا عمير" ليخرجه بهذا النداء الذي هو في أصله للبعيد، ليخرجه من غمرة وذهول الحزن، وليتنبه كذلك لمواساة الرسول ﷺ له، وتوده إليه، وقد خاطبه بالكنية من باب التفاؤل، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "قال العلماء: كانوا يكنون الصبي تفاؤلا بأنه سيعيش حتى يولد له، وللأمن من التلقيب"[4].

وقد جاء الاستفهام النبوي "ما فعل النغير؟" في سياق التسلية للطفل عن حزنه فرسول الله ﷺ قد سأل أهله عن سبب حزنه وعرف أنه لموت النغير، ويتبادر إلى الذهن سؤال وجيه وهو: كيف يوجه الرسول ﷺ السؤال أو الخطاب لطفل لم يتكلم بعد؟ ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وفيه جواز مواجهة الصغير بالخطاب خلافا لمن قال الحكيم لا يواجه بالخطاب إلا من يعقل ويفهم والصواب الجواز حيث لا يكون هناك طلب جواب"[5]، ويتضح من خلال كلام الحافظ ابن حجر -رحمه الله- أن طلب الجواب غرض من أغراض الخطاب، وليس هو فقط كل أغراضه، فالخطاب لهذا

---

(١) كيف نعيش مع الأطفال: ٥٨.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم الحديث (٦٢٠٣)، ٨/٤٥.

(٣) فتح الباري: ١٠/٧١٤-٧١٥.

(٤) المصدر السابق: ١٠/٧١٤-٧١٥.

(٥) المصدر السابق: ١٠/٧١٧.

الطفل الحزين لغرض التحفيف من حزنه، والتسلية له عن فقد طيره، ولزرع الإحساس بأن الآخرين يشاركونه اهتمامه، ويساعدونه على نسيان حزنه، وفي ذلك تأنيس له، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "التحقيق فيه جواز مواجهته بالخطاب، إذا فهم الخطاب، وكان في ذلك فائدة، ولو بالتأنيس له"[1].

إن علماء نفس الطفل يقررون المعاني السابقة لخطاب الطفل غير القادر على الكلام تماما، وقد سبقهم إلى هذا التقرير الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، فهم يقولون: "إذا كان الأطفال غير قادرين على الكلام بعد، فليس معنى ذلك أنهم غير قادرين على السماع والفهم"[2].

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتلطف مع الأطفال ما جاء عن الصحابية الجليلة أم خالد بنت خالد[3] -رضي الله عنها- قالت: " أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَةٌ، فَقَالَ: "مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ" فَسَكَتَ القَوْمُ، قَالَ: "ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ" فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ، فَأَخَذَ الخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا، وَقَالَ: "أَبْلِي وَأَخْلِقِي" وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ، فَقَالَ: "يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَاهْ" وَسَنَاهْ بِالحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ[4].

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلة من أبناء صحابته الكرام، والتي قضت في الحبشة عدة سنوات من طفولتها، ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وذكر ابن سعد أنها ولدت بأرض الحبشة، فأتي بها النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى صغر سنها، إذ ذاك"[5].

---

(١) فتح الباري: ٧١٧/١٠.

(٢) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ١٥٩.

(٣) هي أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشية الأموية، وهي مشهورة بكنيتها، واسمها أمة. لها ولأبويها صحبة، وكانا ممن هاجر إلى الحبشة، وقدما بها وهي صغيرة، وقصتها عند البخاري. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة: ٣٨٥/٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب الخميصة السوداء، رقم الحديث (٥٨٢٣) صحيح البخاري: ١٤٨/٧.

(٥) فتح الباري: ٣٤٥/١.

فيتودد ﷺ لها ويكرمها بكسوتها خميصة، وقد جاء في القاموس: "والخميصة: كساء أسود مربع له علمان"[1]، إدخالا للسرور على هذه الطفلة، والتي عانت هول الأسفار، ومشتقتها، ووحشة الغربة، ومضض الحاجة مع والديها، والمؤمنين المهاجرين إلى الحبشة، إبان إقامتهم فيها، ثم يخاطبها ﷺ بقوله "أبلي، وأخلقي"، وقد جاء في النهاية: "وفي حديث أم خالد قال لها: أبلي وأخلقي يروى بالقاف والفاء، فالقاف من إخلاق الثوب، تقطيعه، وقد خلق الثوب وأخلق، وأما بالفاء فيعني العوض والبدل وهو الأشبه"[2].

وعند قوله ﷺ "أبلي وأخلقي" نجد صيغة أمر، وهذا الأمر الغرض منه الدعاء للطفلة، بالعوض والبدل من هذه الثياب، والمستلزم طول البقاء.

وقد ورد في رواية صحيحة تكرير "أبلي وأخلقي"[3]، من الرسول ﷺ ثلاث مرات، وهذا إطناب بالتكرير، يزيد الإيناس للطفلة المخاطبة، كما أن فيه تأكيد الدعاء للطفلة بالإبلاء والإخلاق أو الإخلاف، والذي يحصل بسبب طول العمر، حتى تخلق الثياب، وتخلف بغيرها، مع ما فيه من المؤانسة، والتلطف بهذه الطفلة، التي عانت ما لم يعانه الأطفال في سنها، من الأهوال.

وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "والعرب تطلق ذلك وتريد الدعاء للمخاطب بطول البقاء بذلك، أي أنها تطول حياتها حتى يبلى الثوب ويخلق"[4].

ثم خاطب الرسول ﷺ الطفلة أم خالد: بالنداء، يا أم خالد، والياء لنداء البعيد، ونزلها ﷺ منـــزلة البعيد وهي القريبة منه، ليشد انتباهها إلى خطابه، وأنها مخصوصة به، تودد إليها، وإدخالا للسرور على نفسها إذ كل مؤمن سعادته في أن يخاطبه الرسول ﷺ مباشرة، وهي أمنية غالية.

---

(١) القاموس المحيط، حرف الخاء: ٥٠٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٦٣/٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من ترك صبية غيره حتى تلعب به، أو قبلها، أو مازحهـــا، رقـــم الحديث (٥٩٩٣)، ٧/٨.

(٤) فتح الباري: ٣٤٥/١٠.

ويقول ﷺ "هذا سناه" في خطابه للطفلة، التي عاشت في أرض الحبشة، ولعلها تعلمت مفردات من لغتها، وبهذا اللفظ يتودد لها ﷺ، وينعش ذاكرتها بشيء محبب للنفوس، وهو الحسن والجمال، إذ الكلمة معناها كما ورد عند شراح الحديث: حسن، أو جميل.

ويقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "ويا أم خالد هذا سنا، والسنا: بلغة الحبشة الحسن"(١).

ويضيف بدر الدين العيني -رحمه الله- إضافة قيمة، تدل على إدراكه لبعض الجوانب النفسية الكامنة في زوايا الخطاب، والتي هي عمدة في كثير من أبواب البلاغة، إن لم يكن جُلَّها، فقال: "وقد كان غرض رسول الله ﷺ من التكلم بهذه الكلمة الحبشية استمالة قبلها، لأنها كانت ولدت بأرض الحبشة"(٢).

إن ورود المسند إليه اسم إشارة "هذا" كان لغرض أن تميزه الطفلة المكرمة بالثوب الجميل المخطط أن تميز هذا الثوب، وأن تحس بالإشارة بأنها غالية وعزيزة على الرسول ﷺ، إذ أهدى إليها الثوب، وكساها إياه بيده الشريفة ﷺ.

وقد ورد في رواية أخرى للحديث، ترويها أم خالد -رضي الله عنهما- قالت: فكساني رسول الله ﷺ خميصة لها أعلام، فجعل رسول الله ﷺ وسلم يمسح الأعلام بيده ويقول: "سناه سناه"(٣). ففي هذه الرواية تكرير لفظة "سناه سناه" والتكرير هو من الإطناب غرضه التأكيد على المعنى، إذ هو الحسن والجمال؛ لإدخال السرور على نفس أم خالد الطفلة التي كانت قد عانت من أهوال السفر والمشقة في سبيل الله.

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتلطف ما جاء عن الصديقة عائشة -رضي الله عنها- قالت: " قالت: قدِمَتْ على النبي ﷺ حليةٌ مِنْ عندِ النَّجاشيِّ أهداها له، فيها خاتِمٌ مِن ذهبٍ، فيهِ فَصٌّ حَبَشِيٌّ، قالت: فأخذه، قالت: فأخذه رسول الله ﷺ بِعُودٍ مُعرِضاً عنه، أو ببعضِ أصابعِه، ثم دعا أُمامةَ بنتَ أبي العاص -ابنةَ ابنتِهِ زينب-

(١) المصدر السابق: ١٠/٣٤٦.

(٢) عمدة القارئ : ٢٢/٧.

(٣) رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة، رقم الحديث (٣٨٧٤)، ٥/٥٠.

فقال: "تحلَّي بهذا يا بُنيةُ" "[1].

ففي هذا الحديث أهديت إلى الرسول الكريم ﷺ هدية من ملك الحبشة، فيعرض عنها ﷺ لكونها ذهبا، -والذهب محرم على ذكور الأمة- ثم يدعو ﷺ طفلة صغيرة هي حفيدته، ويبدأ معها الخطاب بفعل أمر، هو: "تحلي" والتحلي هو التجمل بما يلبس أو يوضع للزينة، وجاء في القاموس: "الحَلي بالفتح، ما يزين به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة كتَحَلَّت أو صارت ذا حلي، وحلاها تحلية ألبسها حليا"[2].

إن عدوله ﷺ عن لفظة "خذي" لما قد تحمله من معنى الجفاء، وكذلك عدوله ﷺ عن لفظة "ضعي" لما قد تشعر به من الاستعلاء، والرسول ﷺ هو العظيم خلقا في البشر في أحواله كلها، وخصوصا خطابه ﷺ، فعدل عن تلك الألفاظ وقال: "تحلي" لما فيها من معنى الجمال، وقد كان ﷺ محبا له في كل شيء، ثم يخاطبها ﷺ بالنداء للبعيد وهي القريبة؛ لتعي هذا الاكرام، وتدرك مدى حبه ﷺ لها واهتمامه بأمر زينتها وجمالها؛ وليدخل السرور عليها.

والملاحظ أن النداء للطفل في أغلب الأحاديث جاء مقدمة للخطاب، وهنا جاء متأخرا، وذلك لأغراض لعل منها:

١) أن الحاجة إلى التنبيه واستحضار الذهن في مقام التودد ليست ملحة وضرورية كما في مقام التعليم والإرشاد؛ لقيام الفرح والسرور مقام التنبيه.

٢) أن البداية بأمر محبب إلى النفس ترغب فيه وتحبه لا يحتاج إلى ذلك التنبيه والاستحضار، واللذان هما الوظيفة النفسية والذهنية لأسلوب النداء في مقام التعليم والإرشاد.

إن الرسول ﷺ بإعطاءه هذه الطفلة هدية غالية الثمن ومن ملك من ملوك الأرض في ذلك الزمان، إنما يغرس في نفس الطفلة قيم البذل والعطاء، ويربي فيها الأخلاق،

---

(١) أبو داود في كتاب الخاتم، باب ما جاء في الذهب للنساء، رقم الحديث (٤٢٣٥)، ٤/٩٢. قال شعيب الأرنؤوط "إسناده حسن من أجل ابن إسحاق - وهو محمد - وقد صرح بالتحديث عند أبي داود. وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، غير يحيى بن عباد، فروى له البخاري في "القراءة خلف الإمام" وأصحاب السنن، وهو ثقة". مسند أحمد: ٤١/٣٧٣.

(٢) القاموس، حرف الحاء: ٣٩٨.

والقيم الاسلامية بعمق وهدوء، ولذا يقول بعض علماء النفس والتربية: "من أهم مطالب النمو في مرحلة الطفولة الوسطى والمتأخرة تكوين الضمير، والقيم الخلقية، وممارسة الأخذ والعطاء مع الأقران"(١).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتلطف ما جاء عن الصحابي الجليل حنظلة بن حِذْيَم، قال: قال أبي -حِذْيَمُ-: يا رسول الله إني رجل ذُو بَنِينَ، وهذا أصغر بني، فَسَمِّتْ عليه، قال: فقال رسول الله ﷺ: "يَا غُلامُ" وَأخذَ بيدِي، ومسحَ رأسَي، فقال: "بَارَكَ اللهُ فيكَ"(٢).

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا، حضر إليه مع أبيه، وقد كان الأب أحضره ليشرف بلقاء رسول الله ﷺ، وينال من بركة دعائه الشريف، فسمت عليه رسول الله ﷺ، وقد جاء في القاموس المحيط شرح التسميت، فقال: "ذكر الله تعالى على الشيء"(٣)، ثم ناداه رسول الله ﷺ بقوله: "يا غلام" تودد إليه وتلطفا به وحظوة بأن يناديه الرسول الكريم ﷺ ولينتبه الغلام لما سيتلقاه من إحسان، وتلطف وتودد، أيدته تلك الحركات الحانية من الأخذ باليد والمسح على الرأس، ثم أردف رسول الله ﷺ الخطاب بالدعاء له، بقوله: "بارك الله فيك"، وهذه الجملة خبرية في اللفظ إنشائية في المعنى، ولورودها على هذا الشكل نكتة بلاغية، وغرض شريف، وهو الدلالة على وقوع الدعاء، واستجابته ثقة بكرم الله، وقد جاء في المطول: "الخبر قد يقع موقع الإنشاء بلفظ الماضي على أنه من الأمور الحاصلة التي حقها أن يخبر عنها بأفعال ماضية كقولك: وفقك الله للتقوى"(٤).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتلطف ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قال: رُبَّمَا قال لي النبي ﷺ "يَا ذَا الْأُذُنَيْنِ"(٥).

---

(١) علم نفس النمو: ٢٥٠.

(٢) رواه أحمد في المسند، رقم الحديث (٢٠٦٦٥)، وقال محقق المسند شعيب الأرنؤوط في تحققه لمسند الإمام أحمد: "إسناده صحيح" ٢٦٣/٣٤.

(٣) القاموس المحيط، حرف السين: ٧٩٩.

(٤) المطول: ٤٣٢.

(٥) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما جاء في المزاح، رقم الحديث (٥٠٠٢)، ٣٠١/٤. قال الترمذي

ففي هذا الحديث خاطب الرسول ﷺ طفلا متوددا إليه متلطفا به، إذ كان خادمَه ويعيش معه في بيته كأنه ولده، ويبدأ خطابه ﷺ للطفل بالنداء بالياء؛ ليتنبه ويجمع حواسه لما سيلاطفه ويمازحه به الرسول الكريم ﷺ، فيقول له: "يا ذا الأذنين" إذ التودد إلى الطفل ومماز‌حته بهذه العبارة "يا ذا الأذنيين" مما يزيد الطفل سرورا ومحبة لمن يمازحه ويلاطفه، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "وقيل إن هذا القول من جملة مداعباته ﷺ، ولطيف أخلاقه"(١).

۞ ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتي يظهر فيها محبته ﷺ للأطفال ما جاء عن الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُلاعِبُ زَيْنَبَ بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ وَهُوَ يَقُولُ يَا زُوَيْنِبُ يَا زُوَيْنِبُ مِرَارًا"(٢).

ففي هذا الحديث نادى الرسول ﷺ طفلة صغيرة بالياء؛ لتتنبه لملاطفته ﷺ، وتوددِه إليها إذ الياء لنداء البعيد، ونزلها رسول الله ﷺ منـــزلة البعيد وهي قريبة منه؛ لتدرك وتحس من قريب بلطفه وتوددِه وحنانه مع التصغير لاسمها، والذي من أغراضه التدليل المناسب لمقام التودد، ويقول بعض علماء نفس الأطفال: "إن الحنان مع الأطفال له قيمة، سواء جاء مبكرا أو متأخرا"(٣).

۞ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتي يظهر فيها تلطفه ﷺ مع الأطفال ما جاء عن الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لي: "يَا بُنَيَّ"(٤).

ففي هذا الحديث نادى الرسول الكريم ﷺ طفلا بقوله "يا بني" والنداء بالياء والتي هي لنداء القريب، وفي ذلك تنـــزيل للطفل القريب منـــزلة البعيد؛ ولعل ذلك لشغف

-رحمه الله-: "هذا حديث حسن غريب صحيح". سنن الترمذي: ١٦٠/٦. قال ابن القطان -رحمه الله-: "وصححه -أي الترمذي- وإنما هو حسن". بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام: ٨٢٢/٥.

(١) تحفة الأحوذي: ٤٠١/٥.

(٢) رواه الترمذي، باب ما جاء في يا بني، رقم الحديث (٢٨٣١)، ٤٢٨/٤. ورواه ضياء الدين في المختارة، رقم الحديث (١٧٣٣) ١٠٩/٥. قال الترمذي -رحمه الله-: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه". سنن الترمذي: ٤٢٨/٤. قال ضياء الدين المقدسي -رحمه الله-: "إسناده حسن". ١٠٩/٥.

(٣) كيف تتحدث فيصغي الصغار إليك: ٥٨.

(٤) أخرجه مسلم، في كتاب الآداب، باب جواز قوله لغير ابنه: يا بني واستحبابه للملاطفة، رقم الحـــديث (٢١٥١) صحيح مسلم: ١٦٩٣/٣.

الأطفال باللهو واللعب، واستحواذه على عقولهم، ولتنبيه الطفل، وليدرك بحواسه كريم التودد والملاطفة من الرسول الكريم ﷺ، وكلمة "يا بني" من أعذب الكلمات في مسامع الأطفال وأرقها، مع تصغيرها لغرض التدليل، وهو المنسجم والمراعي للمقام، حيث أن المقام مقام تودد وتلطف، وقد بقيت هذه الكلمة الرقيقة في ذهن الطفل، حتى رواها كبيرا، كما أن الإضافة إلى ياء المتكلم في قوله ﷺ "بني" فالمضاف إليه هو الرسول الكريم ﷺ، صفوة البشر، وهذا تكريم ما بعده تكريم، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "وفي هذا الحديث جواز قول الإنسان لغير ابنه ممن هو أصغر منه سنا "يا ابني: و "يا بني" مصغرا و "يا ولدي" ومعناه تلطف، وأنك عندي بمنزلة ولدي"[1].

ومن الأحاديث الواردة في مقام التودد والتلطف ما جاء عن رسول الله ﷺ في قوله "يا أنيس"[2].

ففي هذا الحديث نادى الرسول ﷺ أنس بن مالك بالنداء الذي هو في الأصل للبعيد، بـ "يا" لكن لما أراد رسول الله ﷺ من هذا الطفل القريب منه أن ينتبه لتوده إليه فيحس بحبه ويفرح لذلك ناداه وكأنه بعيد، وقد ناداه باسمه مصغرا تدليلا له وتحببا إليه، وذلك من كمال مراعاة مقتضى الحال أو المقام.

إن الأطفال كما يحتاجون في نموهم الجسدي إلى الطعام والشراب والبيئة الصحية ونحوها يحتاجون كذلك في نموهم النفسي والعقلي إلى الشعور بالحب والحنان واللطف من آبائهم وأمهاتهم ومعلميهم؛ لينشأوا أصحاء نفسيا، ومتزنين عقليا، لذا بعض يقول علماء نفس الأطفال: "والأطفال يحتاجون دائما إلى الحب والشعور العاطفي"[3].

---

(١) تحفة الأحوذي: ٢٤٨/٧.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، رقم الحديث (٢٣١٠) صحيح مسلم ١٨٠٥/٤.

(٣) كيف نعيش مع الأطفال: ٣٦.

المبحث الثاني: الصور البيانية والمحسنات البديعية

الصور البيانية.

توطئة:

في هذا المبحث تظهر قلة مسائل علم البيان في الأحاديث الواردة في مقام التودد، ويظهر للباحث أن هذه القلة سببها أن الاهتمام في خطاب الأطفال ينبغي أن يكون جاريا على "الحقيقة" وهو الأنسب لحالهم دون التركيز على الصور البيانية، وهذا يبين عظيم بلاغته ﷺ ومراعاته للمقام بجميع أطرافه وأهمها الطرف المخاطب وهو الطفل.

۞ ففي حديث الصحابي الجليل أنس ﷺ حيث كان يمازحه الرسول ﷺ عند قوله ﷺ "يَا ذَا الأُذُنينِ" كناية عن صفة، وهي حسن الاستماع لأن شأن من له أذنان من العقلاء أن يكون حسن الاستماع، والفهم والاستيعاب لما يسمعه، وقد جاء في تحفة الأحوذي: "قوله: يا ذا الأذنين معناه الحض والتنبيه على حسن الاستماع"[1].

إن الكناية هنا قريبة واضحة، وذلك لقلة الوسائط بل انعدامها بين الأذنين وحسن الاستماع.

(١) تحفة الأحوذي: ٥/٤٠١.

المحسنات البديعية.

توطئة:

لما كانت الأحاديث في هذا المبحث قصيرة جدا، فقد وجد الباحث أن المحسنات البديعية قليلة، وهي محسنان فقط، الأول: لفظي: وهو "السجع" وهو ذو جرس منغم جميل وخفيف على مسامع الأطفال، يحسن استعماله من البليغ لخطابه مع الأطفال في أغلب الأحوال، والثاني معنوي: وهو "ائتلاف اللفظ مع المعنى".

۞ ففي حديث الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ الذي يلاطف فيه الرسول ﷺ "أبا عمير" عند قوله ﷺ: "يا أبا عمير، ما فعل النغير؟"، محسن لفظي هو السجع، وهو سجع متساوي الفواصل، وذلك مما يحسنه ويزيده تأثيرا جماليا في الأسماع.

إن مناسبة هذا السجع ومراعاته للمقام تبرز في كون الطفل "أبا عمير" كان حزينا، خائرَ القوى، فيجيئ السجع بنغماته وإيقاعه ليبعث فيه النشاط، ويسليه عن حزنه، وذلك بعد موت عصفوره، وكذا المد بالياء في كلمتي: "عمير ونغير" سهل يسير في مسمع الطفل.

وكلمات هذه العبارة المسجوعة تحوي حروفا يأنس إليها صغار الأطفال، ويبدأون باستعمالها في تكوين الكلمات الأُوَل في بداية تعلمهم النطق، ومنها الميم والباء والنون، وقد جاء في كتاب الأصوات اللغوية: "ففي جميع لغات العالم كلمات بسيطة المعنى عريقة النشوء، ويمكن إرجاعها جميعا إلى الأصوات الفطرية التي تصدر من الطفل في مراحله الأولى فمن أصوات الميم والباء والنون والدال والتاء، تلك الأصوات المحببة عند الطفل في مناغاته"[1].

والمحسن الثاني معنوي وهو "ائتلاف اللفظ مع المعنى"، فقد ورد في الحديث تصغير لفظتي عمر ونغر، فوردتا في الحديث هكذا: "عمير ونغير"، ومعناهما ليس فخما فيتطلب بلاغة ألفاظا جزلة فخمة، وإنما المعنى هو الملاطفة والممازحة لطفل صغير، فكان من تمام مراعاة المقام أن تكون الألفاظ سهلة يسيرة تناسب المعنى، وذلك ليحصل ائتلاف اللفظ مع المعنى، وقد جاء في معجم البلاغة العربية: "هو أن تكون ألفاظ المعاني المطلوبة ليس

(١) الأصوات اللغوية: ٢٠٩.

فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى، فإن كان اللفظ جزلا كان المعنى فخما، أو رشيقا رقيقا كان المعنى غريبا"[1].

(١) معجم البلاغة العربية: ٤٣.

الخاتمة:

الحمد لله على ما أنعم به من إكمال هذا البحث والشكر له على توفيقه وعونه، فقد توصل الباحث إلى أن بلاغة الرسول ﷺ في الخطاب الموجه للطفل لها سمات واضحة تميزها من أهمها: فهمه ﷺ الشمولي للنفس البشرية، وما يناسب كل نفس، وما يؤثر فيها من خطاب، ومراعاته لأحوال الأطفال والمقامات التي يوجه إليهم فيها الخطاب، وكونه موجزا وواضحا ومفعلا لأساليب بلاغية معينة هي ضرورة لنجاح وتأثير الخطاب الموجه للأطفال.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث:

- التأكيد على إبراز الناحية الجمالية في الألفاظ والعبارات، وإظهارها للطفل هي سمة خطاب الرسول ﷺ، ولا بد للمختصين في دراسات الأطفال من مراعاتها في كتاباتهم أو خطابهم للأطفال.
- أهمية استعمال أسلوب الاستفهام، وقد ورد في الأحاديث حوالي ثلاث عشرة مرة في الخطاب الموجه للطفل، وما قد يصاحبه من حوار، حيث يعطي الطفل الحرية في التعبير والفرصة للتبرير.
- ضرورة بدء الخطاب بأسلوب النداء، وقد ورد في الأحاديث حوالي إحدى وعشرين مرة حيث يهيأ الطفل ويشد انتباهه؛ لتلقي المعلومات، وكذلك للإحساس بالمشاعر الحانية.
- أسلوب الإيجاز هو من أقوى الأساليب في الخطاب الموجه للطفل، حيث يحقق له سرعة الفهم وسهولة الحفظ والجرأة على المبادرة بالتطبيق.
- استعمال بعض المحسنات المعنوية في الخطاب الموجه للطفل وهي: التصدير "رد العجز على الصدر" والمطابقة، والأسلوب الحكيم، إذ فائدتها المحسوسة في أمرين: توضيح المعلومة، وتثبيتها في ذهن الطفل.
- التقليل من الصور البيانية مهم في خطاب الطفل، إذ إدراك التعبير بها وفهمه يتطلب القدرة على التجريد والتمييز الدقيق وليس ذلك من خصائص الطفل العقلية بشكل عام.

- ربط التعليم والإرشاد بالمواقف والأحداث أسلوب متكرر للرسول ﷺ، يثبت المعلومة في ذهن الطفل ويعزز السلوك الحسن.
- أهمية الجانب العاطفي في التعامل مع الطفل، والتأكيد على إظهاره في خطاب الطفل أو عند الكتابة له، إذ أن هذا الأسلوب يذهب عنه الخوف، ويملأ نفسه بالثقة فيمن يعلمه أو يرشده.
- ربط الدراسات البلاغية بالدراسات النفسية الحديثة -أسوة بالدراسات الأدبية- مما يثري علوم البلاغة، ويربطها بالعلوم العصرية، ويجعل علومها متداولة بين أكبر شريحة من المثقفين.
- التأكيد على إدراك الرسول ﷺ لطبيعة النفس البشرية في جميع مراحلها العمرية وحاجاتها لتنمو وترتقي في سلم الأخلاق الفاضلة، وما كانت جهود علماء التربية والنفس والاجتماع في العصر الحديث إلا التعبير عنها ووضعها في قوالب اصطلاحية بعد دراساتهم القيمة، إذ وظيفته ﷺ الدعوة إلى توحيد الله -تبارك وتعالى- وإصلاح النفوس، وتزكية الأخلاق.
- ضرورة استصحاب صفات الرسول ﷺ وأخلاقه وبَهائه، وجمال صورته، ونبرات صوته، وعظم بلاغته، وفصاحته التي تؤثر أعمق تأثير في نفوس المخاطبين مع كل دراسة تحليلية تختص بالحديث الشريف؛ لتتكامل الصورة في الأذهان بجميع جوانبها عن هذا الوحي الثاني ويقر المخالف والمعاند بكمال الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لهداية البشر وتنشئة أطفال مميزين في العالم.

هذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾	آل عمران	٣٦	٤٢
﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾	التوبة	١٢٨	٤٢
﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾	الحج	٧٨	٢٢
﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	الأنبياء	١٠٧	٤٦
﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا ﴾	المؤمنون	١٠٨	٥١
﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾	النمل	٢٠	٣٤
﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾	النجم	٣٢	٧٠
﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾	الواقعة	٣٠	٦٤
﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾	الحشر	٩	٣٦

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
"أُبَيْنَيَّ لا ترموا الجمرات....".	٣١
"أتشهد أني رسول الله؟".	٤٨
"اذهب فادع فلانا، وفلانا، وفلانا، ومن لقيت".	٤٧
"أعيذكما بكلمات الله.....".	٢١
"الحمد لله الذي أنقذه من النار".	٤٦
"الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالدا".	٣٥
"القط لي حصى .....".	٣٢
"ألقها".	١٤
"اللهم أنتم من أحب الناس إلي".	٧٢
"اللهم اهدني فيمن هديت....".	١٦
"أنت جميلة".	٥٧
"إنكم لتُبخِّلون، وتُجبِّنون، وتُجهِّلون".	٥٣
"ائتوني بأم خالد".	٧٦
"بارك الله فيك".	٨٠

"تحلي بهذا يا بني".	٧٨
"فلا تمش أمامه ولا تستب له ولا تجلس قبله".	٥٣
"كخ كخ".	١٣
"لا تزكوا أنفسكم".	٧٠
"ما شأني أجعلك حذائي فتخنس".	٣٤
"يا أبا عمير ما فعل النغير".	٨٥/٧٥
"يا أنيس اذهب حيث أمرتك".	٧٤
"يا بني إياك والالتفات في الصلاة".	٤٠
"يا بني لم ترم النخل".	٤٠
"يا بني".	٨١
"يا ذا الأنين".	٨٠
"يا زوينب".	٨١
"يا غدر".	٥٧
"يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ".	٣٧
"يا غلام إني أعلمك كلمات....".	٢٣
"يا غلام سم الله، وكل بيمينك".	٣٨

"يا غلام هذه أمك وهذا أبوك".	٤٤

فهرس المحتويات:

المقدمة ٢
الأهمية العلمية للموضوع ٤
أسباب اختيار الموضوع ٥
خطة البحث ٦
الدراسات السابقة ٧
منهج دراسة البحث ٨
الشكر والتقدير.....٨
التمهيد ٩
الفصل الأول : حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام الإرشاد والتعليم.....١٢
المبحث الأول: خصائص النظم ١٣
قوله ﷺ: "كخ كخ"..... ١٣
قوله ﷺ: "ألقها"..... ١٤
قوله ﷺ: "اللهم اهدني فيمن هديت...." ١٦
قوله ﷺ: "أعيذكما بكلمات الله....."..... ٢١
قوله ﷺ: "يا غلام إني أعلمك كلمات...". ٢٣
قوله ﷺ: "أُبَيْنَيَّ لا ترموا الجمرات...."..... ٣١
قوله ﷺ: "القط لي حصى ....."..... ٣٢
قوله ﷺ: "ما شأني أجعلك حذائي فتخنس"..... ٣٤
قوله ﷺ: "الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالدا"..... ٣٥
قوله ﷺ: "يا غلام أتأذن لي أن أعطيه الأشياخ"..... ٣٧
قوله ﷺ: "يا غلام سم الله، وكل بيمينك"..... ٣٨
قوله ﷺ: "يا بني لم ترم النخل"..... ٤٠
قوله ﷺ: "يا بني إياك والالتفات في الصلاة". ٤٢
قوله ﷺ: "يا غلام هذه أمك وهذا أبوك"..... ٤٤

قوله ﷺ: "الحمد لله الذي أنقذه من النار"..... ٤٦
قوله ﷺ: "اذهب فادع فلانا، وفلانا، وفلانا، ومن لقيت"..... ٤٧
قوله ﷺ: "أتشهد أني رسول الله؟"..... ..... ٤٨
قوله ﷺ: "فلا تمش أمامه ولا تستب له ولا تجلس قبله"..... ٥٣
قوله ﷺ: "إنكم لتُبخِّلون، وتُجبِّنون، وتُجهِّلون"..... ٥٥
قوله ﷺ: "أنت جميلة"..... ٥٧
قوله ﷺ: "يا غدر"..... ٥٧
المبحث الثاني: الصور البيانية والمحسنات البديعية ٥٩
الصور البيانية ٦٠
المحسنات البديعية ٦٣
الفصل الثاني: حديث الرسول ﷺ مع الأطفال في مقام التودد ٧١
المبحث الأول: خصائص النظم ٧٢
قوله ﷺ: "اللهم أنتم من أحب الناس إلي"..... ٧٢
قوله ﷺ: "يا أنيس اذهب حيث أمرتك"..... ... ٧٤
قوله ﷺ: "يا أبا عمير ما فعل النغير". ٧٥
قوله ﷺ: "ائتوني بأم خالد". ٧٦
قوله ﷺ: "تحلي بهذا يا بنية". ٧٨
قوله ﷺ: "بارك الله فيك"..... ٨٠
قوله ﷺ: "يا ذا الأنين"..... ٨٠
قوله ﷺ: "يا زوينب"..... ٨١
قوله ﷺ: "يا بني"..... ٨١
المبحث الثاني: الصور البيانية المحسنات البديعية ٨٣
الصور البيانية ٨٤
قوله ﷺ "يا ذا الأذنين". ٨٤
المحسنات البديعية ٨٥

قوله ﷺ: "يا أبا عمير، ما فعل النغير" ٨٥
أهم النتائج التي توصل إليها الباحث ٨٧
الخاتمة ٨٧
فهرس الآيات ٨٩
فهرس الأحاديث ٩٠
فهرس المحتويات ٩٣
فهرس المصادر والمراجع ٩٦

فهرس المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم.

٢- إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة، المؤلف : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، عام: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٣- اتفاق المباني وافتراق المعاني، المؤلف : أبو الربيع سليمان بن بنين بن خلف بن عوض تقي الدين المصري، ط: دار عمار - عمان، الطبعة الأولى، عام: ١٩٨٥

٤- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي، ط: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، عام ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

٥- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

٦- أسرار البلاغة، تأليف: الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ط: مطبعة المدني، القاهرة، عام: ١٤١٢هـ.

٧- الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، ط: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

٨- الإصابة في تمييز الصحابة المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: - ١٤١٥ هـ

٩- الأصوات اللغوية، تأليف: إبراهيم أنيس، ط: مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، عام: ٢٠١٠م.

١٠- إكمال المعلم بفوائد مسلم، تأليف: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ط: دار الوفاء، الطبعة الثانية، عام ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١١- الإيضاح في علوم البلاغة للإمام محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين

الخطيب المعروف بالقزويني، تحقيق مجدي السيد، ط: المكتبة التوفيقية.

١٢- البارع في اللغة، المؤلف: أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم، ط: مكتبة النهضة بغداد، دار الحضارة العربية، بيروت، الطبعة: الأولى، عام: ١٩٧٥م.

١٣- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري، ط: دار الهجرة للنشر والتوزيع -الرياض- السعودية، الطبعة: الاولى، عام: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٤- بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام، المؤلف : علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي، أبو الحسن ابن القطان، ط: دار طيبة – الرياض، الطبعة : الأولى، عام ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٥- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، المؤلف : محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

١٦- تحفة الأحوذي للإمام الحافظ أبي العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، ط: دار الحديث، القاهرة عام ١٤٢١هـ ٢٠٠١م

١٧- التشويق في الحديث النبوي، تأليف: بيسوني فيود، ط: مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤هـ.

١٨- تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف : ناصرالدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط: دار النشر : دار الفكر – بيروت.

١٩- التلخيص في علوم البلاغة، تأليف: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٠- تمام المنة في التعليق على فقه السنة، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، الألباني دار الراية، الطبعة: الخامسة.

٢١- الجامع الكبير: سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن

الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، ط: دار الغرب الإسلامي — بيروت عام: ١٩٩٨ م.

٢٢- صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، ط: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، عام ١٤٢٢هـ.

٢٣- صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي — بيروت

٢٤- دلالات التركيب تأليف: محمد أبو موسى، ط: مكتبة وهبة، عام: ١٣٩٩هـ.

٢٥- دلائل الاعجاز في علم المعاني، للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني، ط: دار المعرفة، بيروت الطبعة الثالثة، عام ١٤٢٢هـ.

٢٦- رعاية حال المخاطب في الصحيحين، تأليف: الدكتور يوسف العليوي، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٢٧- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٢٨- سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

٢٩- سنن أبي داود، المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، صيدا — بيروت.

٣٠- شرح مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، ط: المكتبة العصرية، بيروت، عام ١٤٢٦هـ.

٣١- عُجالةُ الرّاغِبِ المُتَمَنِّي في تخريج كِتابِ «عَمَلِ اليَوم وَاللَيلة» لابن السُّنِّي، المؤلف: أبو أسامة، سليم بن عيد الهلالي، ط: دار ابن حزم، بيروت — لبنان، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٣٢- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تأليف: بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤٢٢هـ.

٣٣- علم النفس النمو، تأليف: فادية حمام وآخرون، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٣٠هـ.

٣٤- عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد، المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم، الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بـ «ابن السُّنِّي»، ط: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.

٣٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، ط: دار السلام، الرياض عام ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٦- الفقه على المذاهب الأربعة، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري ط: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

٣٧- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، تأليف: محمد بن الحسن الحجوي الفاسي، ط: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى عام ١٤٢٧هـ.

٣٨- القاموس المحيط، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط: دار الحديث، القاهرة، عام: ١٤٢٩هـ.

٣٩- كيف تتحدث فيصغي إليك الصغار، تأليف: إديل فابرو إلين مازليش، ترجمة: فاطمة صبري، ط: مكتبة العبيكان، الرياض، عام: ١٤٢٩هـ.

٤٠- كيف نعيش مع الأطفال، تأليف أديث نيسر، ترجمة: سامي جمال، ط: مؤسسة فرانكلين، القاهرة، نيويورك.

٤١- لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ط: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٤٢- المجازات النبوية، تأليف: الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى، العلوي ط: دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

٤٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ط: دار الكتاب العربي -

بيروت، الطبعة: الثالثة، عام: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م

٤٤- المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن ، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، عام: ١٤١١ – ١٩٩٠م.

٤٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، عام: ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

٤٦- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تأليف: العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، عام: ١٤٢٨هـ.

٤٧- معاني النحو، تأليف: فاضل صالح السامرائي، ط: دار الفكر، عمان، عام: ١٤٣٢هـ .

٤٨- معجم البلاغة العربية تأليف: بدوي طبانة، ط: الثالثة، جدة، دار المنارة عام ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

٤٩- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط: مكتبة الشروق، القاهرة، عام: ١٤٣١هـ.

٥٠- معجم مقاييس اللغة، تأليف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، عام: ١٤٢٩هـ.

٥١- نصب الراية لأحاديث الهداية، المؤلف: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، ط: مؤسسة الريان للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٥٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: مجد الدين المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، ط: المكتبة العصرية، بيروت، عام: ١٤٣٢هـ.